

نحو القرآن

تأليف

أحمد عبد الستار الجواري



الناشر مكتبة اللغة العربية - شارع المتنبي - مجمع الزوراء

مَطْبَعَةُ مَجْمَعِ الْعِلْمِ الْعِرَاقِيِّ

نحو القرآن

أحمد عبد الشار الجوّاري



مَطْبَعَةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعِرَاقِيِّ

بغداد

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث عنيت به مدة من الزمن غير قصيرة ، وقد شغل فكري وأنا أنظر في تأمل وإمعان إلى العبارة القرآنية حين أتلوها أو حين أستمع إليها .

ولقد بدأت هذه العناية بفضل ممارسة ما كتبه العلامة ابن هشام في شرحه على الألفية ، أو في كتابه الحليل القدر (مغني اللبيب) . وكانت مدارس هذين الكتابين أدعى إلى التأمل وإنعام النظر ، ولا سيما ما خلعته عليهما العبارة القرآنية من دقة في العبارة واستبعاد للفضول في الأسلوب وفي القاعدة النحوية . وقد برزت من خلال ذلك ظواهر وحقائق تنبئ بتقصير النحاة عن استقصائها والوقوف عندها حين وضعوا قواعد النحو ، مستنبطين إياها مما لا يرقى إلى المؤلف الجيد بله الرفيع من الكلام .

او حين اعملوا القياس والاستنتاج الذي لا يقوم على اساس موضوعي
ولقد حملتني مهابة هذا الموضوع وجلالة قدره على تأمل
عواقب الخوض فيه ، ولكنها لم تقعدني عن تتبع اجزاء منه في
اناة وفي رفق وفي حذر ، يعرفها من يعرض للبحث في مسائل
النحو ومشكلاته التي استسلم لسلطانها فطاحل من العلماء ، غير
واجدين فوق ما تزودوا زيادة لمستزيد .

ثم هممت بمادة جمعتها منذ سنين اقلب فيها واعيد قراءتها
وأجتهد في كتابة بحث عنها ، ولكنني ارتددت ارتداد العاجز
عن ارتياد آفاقها حسيراً لا قبل له بالوفاء بها .

ولما اذن لي أن اشهد المؤتمر المشترك لمجمع اللغة العربية بالقاهرة
والمجمع العلمي العراقي الذي انتظم عقده في القاهرة في شباط
١٩٦٧ ، كان مما أتحف به المؤتمرين بحث في رد شبهات يقع
فيها بعض المفسرين والمعربين لآي القرآن الكريم للأستاذ الثبت
المحقق الشيخ عبد الرحمن تاج . وقد كان بحق واسطة العقد
لأبحاث قيمة لأساتذة أجلاء مازال عطاؤهم للمعرفة ثرا جزيل
النفع جم الفوائد .

ولقد حملتني الاستزادة من الاستفادة على أن أقول في التعقيب
على البحث المنوه به للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج كلاماً وقع
من نفسه ومن نفوس أولئك الأساتيد الأفاضل موقع القبول ،

وذلك لعمرى غاية ما يطلبه مثلي من امثالهم .

ثم كان من هذا المجمع الرفيع المقام رضى عن بحث في اصول اللغة القيته و كان عنوانه « من دلائل القدم في اللغة العربية » . وفيه إشارات إلى مسائل في نحو العبارة القرآنية جعلت فريقاً من أهل الفضل يستحثني أن أقدم على خوض هذا المدى الذي كنت أجدني أقل ممن يحق لهم أن يوغلوا فيه .

وهكذا يسر الله لي أن أتقحم هذا المجال ، وأن أحرر هذه الصفحات عسى أن يكون فيها خدمة مهما ضئلت للكتاب العزيز واللغة العربية العزيزة .

ولم تبلغ بي الجرأة مبلغ الاقدام على نشر هذا البحث إلا بعد أن عرضت شيئاً مما تناوله على بعض الأفاضل ، وكان يستحثني أن أخرجه وأن أنشره .

ولقد أقدمت على نشره مدركاً أنه جهد مقل أثر أن لا يضمن به على الدارسين ، مؤملاً أن يقع لدى الباحثين موقع التقدير لما بعث على بذل الجهد فيه والاقدام على نشره .

عسى الله أن يجعل فيه أثارة من نفع ، وأن يوفق لاستكمالها والاستزادة مما قصد اليه . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

ما انفكت الرغبة في دراسة نحو القرآن ، على صورة من
الصور تملك علي جوانب في نفسي ، ويخالجني شعور ممتزج بقناعة
فكرية مستقرة مطمئنة ، بأن دراسة النحو القرآني هي المفتاح الذي
ينفتح به كثر من مغاليق النحو ، التي استعصت على كثير ممن
تصدى لتيسيره وتهذيبه ، وتمهيد سبله المتوعدة المتشعبة .
والقرآن كتاب العربية الأكبر ، على حد ما كان يصفه به
أستاذنا العلامة أمين الخولي أفاض الله عليه واسع الرحمة .
وإذن ، فتراكيبه واساليبه ، هي الأصل الذي يستأهل أن
تقوم عليه دراسة التراكيب العربية والاساليب العربية .
والقرآن في ما اشتمل عليه من معالجات أدبية متنوعة متعددة
قد أسس للأساليب والتراكيب التي استطاعت بعد ان قامت
أركان الحضارة ، أن تستوعب أفكارها ومعانيها ، وأن تكون

تلك الأساليب والتراكيب وعاء للعلم والفلسفة وسائر ألوان الحياة الجديدة ، فوق كونها أداة التعبير الأدبي المؤثر البليغ .

والقرآن في صورته المطلقة الحرة من كل قيد ، هو الذي خرج بالأساليب العربية من حدودها ، وهو الذي أطلقها من قيودها فصارت أداة التعبير الفنية عن الحياة والحضارة في جوانبها وأجزائها المختلفة .

والقرآن إذن هو الخلق بأن تكون أساليبه وتراكيبه المثال الذي يقتدى به وينحى نحوه ، ويهتدى به .

- ١ -

ولكن الذي كان ممن وضعوا النحو في أول الأمر ، غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه ، فقد اشتط بهم السبيل وعميت عليهم المسالك ، فتنكبوا سبل القصد ، واعتمدوا في وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله . أو آثروا جانب المنطق ، فتصوروا القاعدة قبل استقرار المادة اللغوية ، وركبوا مركب الشطط ، فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سلطاناً على المروي المأثور ، يحكمونها فيه ويحسبون أن ذلك هو الصواب ، وما هو إلا مجانبة الصواب . ولقد بلغ بعضهم في هذا المجال مبلغ الايغال والغلو ، فحكموا على مواضع من آي القرآن بخروجها على نحو العربية ، وركنوا إلى التأويل والتخريج ، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها

الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .
ولو انهم سلموا للقرآن من حيث تاريخ نزوله على الأقل بما
سلموا للمروى من كلام العرب في العصور التي يستشهد بالمروى
عنها لما سقطوا في مثل تلك المزالق ، ولما وقعوا في مثل تلك الاخطاء
وأحسب أن دراسة النحو القرآني قميئة أن تقيم قواعد النحو على
اصولها التاريخية الصحيحة ، وتبنيها على اسسها الفنية السليمة
للأسباب التي أسلفت إليها الاشارة ، وهي أسباب تكاد تكون
عند الباحث عن الحقيقة بديهيات ومسلمات أولية .

ولقد كان بعض قدامى النحاة على جانب من هذه العناية
بنحو القرآن . واهتمام باستنباط القواعد من تراكيبه وأساليبه
ولعل ابن هشام هو الذي كان اشدّهم بها عناية وأكثرهم بها
حفاوة وكانت آثار ذلك بينة في استقامة فكره واستقلال رايه
ووضوح شخصيته كما يقال .

ولقد سلمت كتبه على العموم مما يشوب كتب النحو من قواعد
واصول مفتعلة مصطنعة تكاد تبعث على السخرية في بعض الأحيان

— ٢ —

وبعد ، فقد كان خليقاً بمن وضعوا النحو واسسوا قواعده
أن تكون المادة القرآنية أهم ما يقيمون عليه تلك القواعد ويستندون
إليه في وضع النحو ، لأن أسلوب القرآن وتركيبه مبرأ من

الضرورات والشواذ التي حفل بها الشعر وامتلأ بها غريب اللغة الذي استندوا اليه بلا اعتدال ولا قصد .

فلقد فرطوا في جانب المادة القرآنية تفريطاً أدى بالنحو إلى إهمال كثير من الأساليب القرآنية العالية الرفيعة ، حتى لم تعد تستعمل أو تحاكي ، وحدد الأدباء والمنشئين وقيلهم بأساليب وتراكيب لم يشأ أولئك الواضعون أن يخرجوا عليها .

ومن أشنع سقطات النحاة . أنهم كانوا مهازيل في الرواية فان في كتب النحو كثيراً من القواعد قامت على شواهد لا يعلم قائلها ، بل ان كثيراً من تلك الشواهد غريب على اساليب العرب المعروفة في ماروي من مآثور أدبهم شعرا ونثراً . بل هو أشبه شيء بالدخيل المستكره ، بل ان بعضه لا يكاد يستقيم له معنى ولعل من أكثرها تعلقاً بالذهن شاهد سيبويه (١) على إضافة (لبي) إلى الظاهر : .

دعوتُ لِمَا نابني مِسُوراً فلبّي فلبّي يدي مسـور

— ٣ —

وثمة جانب آخر يستأهل التأمل والتفكير ، ذلك أن النحاة القدامى قد احتكموا إلى المنطق كثيراً وأقاموا عليه قواعد النحو . ناسين ان التعبير باللغة فن ما أكثر ما يتجاوز حدود المنطق ورسومه فيحذف أو يذكر ، ويقدم أو يؤخر استجابة لدواع لا تتعلق

(١) الكتاب ج ١ ص ١٧٦

بالمنطق ولا تخضع له .

ولقد أدى بهم ذلك الاستناد إلى المنطق إلى أن يرسموا للتركيب صوراً ثابتة جعلوها هي الأصل ، وما عداها خروجاً على الأصل فقالوا : إن التركيب لا بد أن يشتمل على ركنين مسند ومسند إليه أو موضوع ومحمول ، وذلك هو المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، فإذا حذف أحدهما فعلى نية ذكره ، ولا بد حينئذ من التقدير .

وقالوا إن المعمول لا بد له من عامل يلتمس في التركيب فإذا وجدوه ردوا إليه العمل وإلا قدروه .

وتراهم أحياناً يتلمسون وجه الصواب ويقفون على الحقيقة أو بعض الحقيقة فيقولون : عدم التقدير أسلم من التقدير .

وتراهم يسلمون بوجوب حذف العدة في مواضع استقرارها أحسن استقراراً ، ولكنهم يوجبون في الوقت عينه تقدير المحذوف فيفسدون بذلك معنى الكلام ويضيعون على منشئه ما قصد إليه بالحذف أو التقديم والتأخير ، وهم بذلك يعزلون النحو عن المعنى بل يجردونه من فنية التعبير التي لا يمكن أن ينسلخ عنها لو كان حقاً دراسة شاملة للتركيب .

* * *

تلك امثلة اسوقها للايضاح ليس غير ، وهي من اهم الاسباب التي جعلت من النحو ما يشبه الجسم بلا روح . ولو اننا درسنا نحو القرآن باعتباره أصلاً لا سبيل إل الحكم عليه الا بما هو عليه

دون الاحتكام إلى ما هو أقل منه أصالة ، أو إلى ما هو دخيل على فن القول من قوالب المنطق . أقول لو أننا درسنا نحو القرآن على هذه الجهة لقامت قواعد النحو على أسس سليمة تستمد من أصل لاجب واضح المعالم لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً ، ولبرأنا النحو من علل كثيرة كثيرة جداً ولأغنيا أساليب العربية بما قضى النحو عليه بالاهمال والاندثار من روائع البيان القرآني .

وإن في ما سيعرض له هذا البحث أمثلة لم تحط ولم تشتمل ، وإشارات أود من أعماق قلبي وفكري أن تدل على سبيل أوضح وأقوم في درس النحو والانتفاع به .

وآمل أن يجد فيها الذين يهمهم أن يتعلق النحو - كما هو في الحق - بالاسلوب التعبيري وبالمعنى ، ببلغة يبلغون بها ما هو اجدي وانفع .

ولقد سلكت في هذا البحث طريقاً أجديني في حاجة لايضاح الدافع الى سلوكه ، فقد عمدت إلى النصوص مجردة من الشرح والتأويل والتوجيه ، وتعمدت أن أغفل تعليقات المفسرين والمُعربين وما قدروا من محذوف تخيلوه أو متقدم في الذكر تصوره ، أو عامل كان في نظرهم لا بد من وجوده ، إلى غير ذلك مما يدفعهم إليه استمساكهم بقواعد النحو كما تصورها النحاة ودرجوا عليها ، وإن تكن أصول النحو وقواعده ضربة لازب بالنسبة لكل باحث مهما

اجتهد في الفكاك من أسارها ، ولكن موقفي منها كان موقف غير المستسلم لها ولا المسلم بها على الاطلاق .

وحسبي أن أدل على أن كثيراً منها غير مطرد ولا متساوق ، وأن أساليب التعبير القرآني تهد منها كثيراً مما أراد النحو أن يفرضه على أساليب العربية فأمكنه منه استسلام الدارسين وتسليمهم بتلك القواعد على كل حال .

وتلك لعمرى أدنى إلى الاساليب العلمية في البحث أن يأتي الباحث النص وهو لا يحمل في فكره وفي تصوره صورة تخيله لما ينبغي أن يكون عليه ، كالذي يصنعه دارس الهندسة حين يتخيل الشكل كما ينبغي أن يكون لا كما هو كائن ، فيرسم له بالنقط المنفصل بعضها عن بعض ، تكملة لهذه الزاوية أو تلك ، وإضافة فوق هذا الخط أو توجيهاً لجهته ونحو ذلك مما ييسر عليه حل المشكلة أو تبين أوجه الحل فيها .

ولست أزعم أن مابلغته من نتائج يهد بناء النحو جملة او يقيمه على أسس غير أسسه الأولى ، ولكنني أقرر أن كثيراً من أصول النحو ونظرياته قد قام على غير أساس من التزام ما ورد في المأثور من كلام العرب ، وعلى رأس كل أولئك القرآن الكريم وأن أساليب في التعبير الفني أساء إليها تصور النحاة إياها على غير صورتها الواقعية وغاية هذا البحث أن تشير إلى تلك الأصول غير المؤسسة على أساس ، فلا تعود موازين توزن بها الصحة

والخطأ ، ويعرف بها الصواب من الغلط ، ولا تهمل تلك الصور الحميلة من التعبير أو يساء إليها بالتأويل والتقدير فيضيع معناها الحقيقي وأثره المقصود في النفوس ولعل أهم ما في هذا الباب الحذف ، حذف العمدة كالمبتدأ والخبر والفاعل ونحو ذلك ، أو حذف الفصلة كالمفعول والمجرور والمضاف ، ولقد ألفنا النحاة يقدرون ذلك كله ، كأن لأصل الكلام عندهم صورة لا معدى عنها ولا محيد ، وتقدير المحذوف سواء كان واجب الذكر أو غير واجب الذكر يغير في المعنى أو يضعف أثره في النفس ، لأن حذف المؤلف ذكره إنما يراد به غالباً ضرب من المشاركة بين المنشئ والمتلقي (قارئاً أو سامعاً) في تصور المعنى العام حتى يكون ذلك أبلغ في التأثير وأدعى إلى الاقتناع ، وهذا الأسلوب في فن التعبير مزية بارزة من مزايا القرآن وهو واضح أيضاً في ما يعرف بالالتفات ، وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى التكلم ، حتى لا يكون السامع أو القارئ سلبياً - كما نقول - في تلقي ما يلقي إليه ، وإنما يكون التحول مدعاة لطرده الملل من نفسه وتجديد نشاطه الذهني والشعوري .

* * *

ولست - هنا - في صدد أن آتي على نتائج هذا البحث أو أدل على معالمة البارزة وخطوطه العامة ، لأنني أؤثر أن أفرد لها مكاناً في الخاتمة ، ولكنني أود أن أشير إلى جملة مسائل لفتت نظري بقوة .

فان من ابداع واعجب ما في القرآن ان مواضع منه محفل بشواهد على مسائل نحوية بعينها ، كأنها تعتمد إلى تعليم تلك المسائل أو الأساليب ، مثال ذلك كثرة استعمال الوصف مكان المصدر في سورة الحاقة :

« الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ، كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ، وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ، وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (١) » .

وفي سورة القيامة بضعة مواطن حذف فيها الفاعل من دون ان يسبق له ذكر :

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢) »
« أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) » .
وفي سورة الليل يكثر حذف المفعول :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيْرَهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا

(١) الآيات / ١ - ٩

(٢) الآيات / ٢٦ - ٢٨

(٣) الآيات / ٣٦ - ٣٩

مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١) .

ويكثر في سورة الزمر ورود الجملة محذوفاً فيها المبتدأ أو الخبر وهي في الغالب مسبوقة بالاستفهام ، نحو قوله تعالى :

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (٢) » .

وقوله في سورة هود :

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً (٣) » .

وقوله : ————— :

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٤) » .

وفي سورة محمد يرد المصدر النائب عن فعله — على حد ما يصطلحون عليه — متتابعاً في قوله تعالى :

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَأِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٥) » .

ولعل أهم وأخطر ما يمكن أن تؤكد ه هذه الدراسة حقيقة

(١) الآيات / ٥ - ١٠

(٢) سورة الزمر ، الآية / ٢٢

(٣) سورة هود ، الآية / ١٧

(٤) سورة فاطر ، الآية / ٨

(٥) الآية / ٤

قال بها غير واحد من الباحثين ، وهي ان عزل معاني النحو عن النحو مساءة به بالغة ، وجنوح به عن السبيل السوي أي جنوح وتجريد للنحو من روحه حتى يصير جسماً بلا روح وإهاباً بلا محتوى ، وحقيقة أخرى هي الانتفاع بأساليب قرآنية لم توافق قواعد النحاة فعبثوا بها تقديرًا وتأويلاً حتى توافق تلك القواعد نحو قوله تعالى :

« وَمَا كُنَّا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا (١) »

و « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا (٢) » .

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٣) » .

ونحو :

« فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ

إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى (٤) » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا

بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٥) » .

وفي قصص القرآن في سورة يوسف وفي غيرها من أساليب

الحوار الرائعة الموحية ما يجدي أكبر الجدوى في كتابة القصة

(١) سورة إبراهيم ، الآية / ١٢

(٢) سورة النساء ، الآية / ٨٨

(٣) سورة النساء ، الآية / ٧٥

(٤) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٢

(٥) سورة الحجرات ، الآية / ٦

والرواية ويغني اساليبها الفنية اكبر الغناء .
تلك لمحات قصدت بها إلى ضرب الأمثال ، لعل هذا البحث
الذي لم يرتجل ولم يستعجل أن يستهوي الباحثين فيفصلوا فيه
ويستقصوا ويجدوا فيه مالم أجد من نفيس الجواهر مما ينفخ في علم
العربية روحاً ، ويبث فيه طلاوة الفن وحلاوته ، وعلم الله قصد
السبيل .

الفصل الأول

المبتدأ والخبر

آثرت أن أبدأ بهذا الباب لأنه عماد التركيب واحد أصوله
وصورة الاسناد التي لاخلاف على وجوب ذكر طرفيها بالفعل
أو بالقوة .

فكل مبتدأ لابد له من خبر وكل خبر لابد له من مبتدأ ، لأن
الحكم لا يمكن أن يتصور إلا بالمسند إليه موصوفاً بالمسند فان ذكر
كلاهما كان بها وإن حذف أحدهما صار النحاة إلى تقديمه
حتماً لأن الكلام على حد ما يزعمون لا يقوم إلا بالركنين
ولا تسلم عما ينطوي عليه التقدير من التكلف والتعسف الذي
يذهب برواء العبارة ويخرجها عما قصدت اليه من اثر في نفس
القارئ أو السامع .

ولننظر في طائفة من العبارات القرآنية ونحكم بعد ذلك هل
ثمة من حاجة الى التقدير والتأويل .

١ - « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » (١).

٢ - « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي

تَقُولُ (٢) »

٣ - « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاءً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاءً

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا » (٣).

٤ - « فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً » (٤).

٥ - « بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٥).

٦ - « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (٦).

٧ - « إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ » (٧).

٨ - « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا

طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » (٨).

(١) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٣

(٢) سورة النساء الآية / ٨١

(٣) سورة النساء ، الآية / ٩٢

(٤) سورة النساء ، الآية / ١٧١

(٥) سورة التوبة ، الآية / ١

(٦) سورة التوبة ، الآية / ١١

(٧) سورة النحل ، الآية / ١١٦ ، ١١٧

(٨) سورة النور ، الآية / ٥٣

- ٩ - « وَقَالَتْ أَمْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ ، قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » (١) .
- ١٠ - « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » (٢) .
- ١١ - لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُنُوطٌ » (٣) .
- ١٢ - « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » (٤) .
- ١٣ - « أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » (٥) .
- ١٤ - « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » (٦) .
- ١٥ - « أَمْ يَقُولُونَ : شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » (٧) .
- ١٦ - « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » (٨) .
- ١٧ - « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمُ تُوْعَضُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ، فَمَنْ لَمْ

(١) سورة القصص ، الآية / ٩

(٢) سورة سبأ ، الآية / ١٥

(٣) سورة فصلت ، الآية / ٤٩

(٤) سورة فصلت ، الآية / ٥١

(٥) سورة الزمر ، الآية / ٩

(٦) سورة هود ، الآية / ١٧

(٧) سورة الطور ، الآية / ٣٠

(٨) سورة القمر ، الآية / ٩

يَجِدُ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ
سِتِينَ مَسْكِينًا» (١) .

لقد جرى النحاة والمعربون على تقدير محذوف في المواضع
التي مر سردها وما يماثلها من التراكيب ، لأن التركيب لا يمكن
أن يستغنى عن وجود الركنين كما أسلفنا . قاعدة تقوم على المنطق
ولا تعباً بالأصل العلمي الذي لا يجوز له أن يفترض في مادة
البحث مهما كانت ، ما ليس موجوداً فيها ، ثم ان هذا
الافتراض أو التقدير أو الاصرار على وجود محذوف يذهب بما
قصد إليه الكلام من تأثير بعينه في نفس القارئ أو السامع ، ولو
أننا عرضنا ما يذكره المعربون من تقديرات في هذه المواضع
وسواها لوجدناهم يتكلفونها من بين ثنايا العبارة ولو صرح بها
في الكلام لخرج عما قصد إليه . مثال ذلك قول الفراء في إعراب:
« وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ » (٢) . الرفع على قولك منا طاعة أو أمرك طاعة ،
وكذلك : « قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » (٣) . معناه ، والله أعلم
قولوا سمع وطاعة ، وكذلك التي في سورة محمد صلى الله
عليه وسلم :

(١) سورة المجادلة ، الآية / ٣ ، ٤

(٢) سورة النساء ، من الآية / ٨١

(٣) سورة النور ، الآية / ٥٣

« فَأَوَّلُ لَهُمْ ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » (١) . ليست مرتفعة بـ (لهم) ، هي مرتفعة على الوجه الذي ذكرت لك . وذلك أنهم أنزل الأمر بالقتال فقالوا : سمع وطاعة فاذا فارقوا محمداً صلى الله عليه وسلم غيروا قولهم فقال الله تبارك وتعالى :

« فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » (٢) .

وقد يقول بعض النحويين وذكر فيها القتال وذكرت طاعة وليست فيها واو فيجوز هذا الوجه ، ولو وردت الطاعة وجعلت كأنها تفسير للقتال جاز رفعها ونصبها .

أما النصب فعلى : ذكر فيها القتال بالطاعة أو على الطاعة والرفع على : ذكر فيها القتال ذكر فيها طاعة (٣) .

كل هذا السلوك في الدروب الملتوية لتحقيق القاعدة التي يقوم عليها مذهب الفراء أن المبتدأ مرفوع بالخبر وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ (ذلك مذهب أهل الكوفة) .

وأنت ترى أن لا حاجة إطلاقاً لأي زيادة في الكلام ، وهذا اللفظ المفرد المرفوع (طاعة) يغني عن تركيب ، ويستغني عن كل تقدير يقدم عليه أو يؤخر عنه ، فهو إما إخبار يسد مسد تركيب ، وإما انشاء لا يحتاج إلى مزيد .

(١) الآية / ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة محمد ، من الآية / ٢١

(٣) معاني القرآن ج ١ / ص ٢٧٨ - ٢٧٩

ومن امثلة ذلك ايضاً قول الزمخشري في : « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » (١) . معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم (٢) . وأي بون بين هذا التأويل ومعنى ما قصدت إليه العبارة في الآية ، وأنى للمعرب أن يضيف إلى العبارة ما ليس منها صراحة ولا ضمناً .

وصفوة القول إن الاكتفاء بالاسم المرفوع العمدة يشيع في العبارة القرآنية على الأغلب في أربع صور :
الأولى : جملة الشرط حين يقع الجواب جملة ، فيكتفى فيها بأحد الركنين دون أن يكون الآخر مذكوراً في كلام متقدم إلا إشارة أي إشارة إليه نحو :

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » (٣) .
وقوله تعالى :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (٤) .
« وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » (٥) .

(١) سورة هود ، الآية / ١٧

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٢١٠

(٣) سورة البقرة ، الآية / ١٨٤

(٤) سورة التوبة ، الآية / ١١

(٥) سورة البقرة ، الآية / ٢٨٣

« وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا » (١) .

الثانية : حين يكون موصوفاً نحو قوله تعالى :

« بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ » (٢) .

« قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً » (٣) .

وهذا يشعر باغناء الوصف مطلقاً وكفايته عن الوصف المسند وهو الخبر .

الثالثة : في مواضع معينة بعد الاستفهام سواء أكان حقيقياً أم غير حقيقي ، كأن في الاستفهام دلالة على عجب أو إعجاب أو استنكار يستغنى به عن الركن الآخر في التركيب نحو .

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » (٤) .

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » (٥) .

الرابعة : بعد القول وهذا كثير كثرة تلفت النظر نحو :

« وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ » .

« وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » (٦) .

(١) سورة النساء ، الآية / ٩٢

(٢) سورة سبأ ، الآية / ١٥

(٣) سورة النور ، الآية / ٥٣

(٤) سورة هود ، الآية / ١٧

(٥) سورة فاطر ، الآية / ٨

(٦) سورة القصص ، الآية / ٩

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » (١) .

ولقد مر سرد الأمثلة فلا داعي للعودة إليها ، مع أن ما يستخلص منها جميعاً حقيقة ذات طرفين :
الأول : أن بعض الأسماء التي يوثى بها في حالة الاسناد تكون مشحونة بالمعنى والايحاء بحيث لا تحتاج الى ما يوضحها أو يصفها أو يسند إليها .

الثاني : الاكتفاء بمجمل ما يدل عليه السياق من معنى الوصف والاسناد دون التقيد ب ورود لفظ يشار إليه بضمير أو نحو ذلك .
وهذه كلها طرق في التعبير الفني جنى عليها تمسك النحاة باجزاء الجملة ولا سيما طرفاها اللذان يعرفان بالعمدة . وتقدير ما لم يذكر منهما ، وتأويل الكلام بحيث تذهب روعته ويضمحل أثره في النفس ، أنظر الى قول الزمخشري في قوله تعالى من سورة يونس :

« قُلْ أَنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » (٢) .
قال : أي افترأؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا (٣)
وفي :

« بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . قال : براءة خبر مبتدا محذوف اي هذه

(١) سورة الطور ، الآية / ٣٠

(٢) الآية / ٦٩ - ٧٠

(٣) الكشف ج ٢ ص / ١١٧

براءة (١) .

وقد يكون غرضهم من التقدير محض توجيه للقاعدة النحوية ومحض التزام بالصناعة الكلامية ، إلا أنه على كل حال عبث بالنص وخر وج على المعنى الذي أريد به ، وهو بعد ذلك كله تضييع لفنية الاسلوب لا يغتفر فيه التذرع بالتزام القاعدة التي لم تستكمل أسباب قيامها بالاستقراء الشامل .

الفصل الثاني

الفعل والفاعل

الفاعل عمدة وهو إذن واجب الذكر ، لا يجوز حذفه فان ظهر كان بها وإلا فهو ضمير مستتر عائد على ظاهر مذكور قبله قال ابن مالك :

وَبَعْدَ فِعْلٍ فَاعِلٌ فَإِنْ ظَهَرَ
فَهُوَ وَإِلَّا فَضَمِيرٌ اسْتَتَرَ
ولكن العبارة القرآنية يشيع فيها أن يأتي الفعل وحده من دون أن يسبقه اسم ظاهر يصلح ضميره فاعلا لذلك الفعل قال تعالى في سورة القيامة :

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ » (١) .
وقال تعالى في سورة القيامة ايضاً :

(١) الآيات / ٢٨ ، ٢٦

« أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّرَ الْمَوْتَى » (١) .

وقال تعالى في سورة المجادلة :

« مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » (٢) .

ألا ترى أن الفاعل في الايات السابقة قد استغني عن ذكره لأنه معلوم مفهوم من سياق الكلام . ؟

ولو أرادوا أن يضمروا في : « وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ » . ما يعود على الانسان المذكور في : « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » (٣) . لما تأتي لهم ذلك لأن الضمير يعود على أقرب ظاهر ، والظاهر القريب لا يصلح لأن يعود عليه الضمير .

والامر في « كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » . أوضح واجلى فان ما يصلح للفاعلية لفظاً أو معنى لا وجود لذكره في السورة من أولها الى آخرها .

(١) الآيات / ٣٦ - ٤٠

(٢) الآية / ٧

(٣) سورة القيامة ، الآية / ١٣

أما آية المجادلة وأشباهها فلعلهم يجعلون الاسم المجرور بـ (من) في موضع الفاعل وهو خلاف ما تأسست عليه قواعدهم ولو أجازوا أن يكون الجار والمجرور فاعلا في مواضع بعينها لهان عليهم الامر، ولكنهم يتأولون ويتعسفون فيزعمون أن حرف الجر زائد في مثل :

« قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » (١) .

وفي مثل :

« أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٢) .

يقول الزمخشري : بربك في موضع الرفع على أنه فاعل كفى .
و « أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » . بدل منه تقديره أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد (٣) .

وأنت ترى البون البعيد بين هذه العبارة والنص القرآني حيث يتجه الاسناد الى (بربك) فيه . ويتجه في عبارة الزمخشري الى ما يتعلق به ، وهو كونه (على كل شيء شهيد) .

وذلك لعمرى افتئات على النص وخروج به عن حقيقة معناه وواقعه ، وهي التي تجر الى التهاون في دقة التعبير والاستهانة بها ، ثم تفضي كما أفضت الى رخاوة في ضبط الأفكار

(١) سورة الرعد ، الآية / ٤٣

(٢) سورة فصلت ، الآية / ٥٣

(٣) الكشف ج ٣ ص / ٣٩٦

واضطراب في المقاييس الفكرية .

وللفعل في القرآن قوة الاسم ، فهو يقع في العبارة القرآنية
في موقع الفاعل نحو قوله تعالى :

« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّى حِينَ » (١) .

وليس هذا بالامر الغريب فالفعل والاسم في العربية فرعان
من اصل واحد ، وكلاهما يدل على معناه في نفسه كما يقول
النحاة .

وليس معنى الزمن الموجود في الفعل بمانع من استعماله استعمال
الاسم ، فهو يقع - على حد ما يذكر - صفة أو حالا أو خبراً
ومعنى الزمن يوجد في الاسم بالقوة كالمصدر وبالفعل كالأسماء
المشتقة ولاسيما اسم الفاعل واسم المفعول على أنهم يجيزون
وقوع الفعل موقع الاسم إذا سبقه حرف مصدرى .

ويقول الزمخشري في إعراب الآية السالف ذكرها :
فاعل بدا مضمّر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا
لهم بداء أي ظهر لهم رأي لَيْسَجْنُهُ (٢) .

وهذا التأويل ظاهر التكلف ، وهو فوق ذلك مخالف لقاعدتهم
المشهورة إن المفسر عين تفسيره ، ولو قيل في غير القرآن ثم بدا

(١) سورة يوسف ، الآية / ٣٥

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٢٥٥

لهم أن يسجنوه ، مع التسليم باختلاف المعنى لما احتاجوا إلى مثل
هذا التعسف في التأويل .

ولقد كان الفراء أقرب إلى الحق وأدنى إلى الصواب وابتعد
عن التزام ما لا حاجة إلى التزامه من التقدير والتأويل المتكلف
هاهو ذا يقول في اعراب قوله تعالى من سورة الأنعام :

« كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَرْيَبَ فِيهِ » (١) .
والعرب تقول في الحروف التي يصلح معها جواب الأيمان
بأن المفتوحة وباللام فيقولون أرسلت إليه أن يقوم وأرسلت
إليه ليقومن ، وكذلك قوله :

« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لِيَسْجُنَهُ » (٢) .

وهو في القرآن كثير . ألا ترى أنك لو قلت : بدا لهم أن يسجنوه
كان صواباً ؟ (٣) .

على أن العبارة القرآنية لا تقتصر على ما ذكر « من الحروف التي
يصلح معها جواب الأيمان » . مثال ذلك ، قوله تعالى في سورة الزمر :
« أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » (٤) .

ومن بديع الاستعمال في العبارة القرآنية وقوع الفعل فاعلاً للأفعال
الناسخة حين تكتفي بالمرفوع وهو أسلوب فيه ما فيه من الإيجاز

(١) الآية / ١٢

(٢) سورة يوسف ، الآية / ٣٥

(٣) معاني القرآن ص ٣٢٨

(٤) الآية / ٦٤

الرائع والاستغناء عما لاحاجة للكلام به .

من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة :

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » (١) .

وقوله في سورة النمل :

« قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » (٢) .

وقوله في سورة غافر:

« قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » (٣) .

وقوله في السورة نفسها :

« فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعْنِفُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » (٤) .

والذين لا يرتضون فكاكاً من أسر القاعدة وإن بان فسادها

يركنون إلى التأويل والتقدير كما هي عادتهم .

يقول الزمخشري في آية التوبة التي مر ذكرها : في كادضمير

الشان ، وشبهه سيبويه بقولهم ليس خلق الله مثله (٥)

ومن الواضح أن الاسناد في العبارة لا يمكن ان يتجه إلى محذوف

لايتعلق به حتى التقدير ، وهو متجه إلى المذكور كله أو بعضه

(١) الآية / ١١٧

(٢) الآية / ٧٢

(٣) الآية / ٥٠

(٤) الآية / ٨٥

(٥) الكشاف ج ٢ / ص ١٧٥

وهو فاعل الفعل المذكور ، الا ترى انه يتجه ان يقال في غير القرآن: قالوا أولم تك رسلكم تأتيكم بالبينات فلم يك أيمانهم ينفعهم لما رأوا بأسنا . من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وإذن فلا محل لضمير الشأن ولا حاجة به .

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا الباب أن النحاة كثيراً ما يتخذون من ضمير الشأن وهو في الغالب محذوف غير ممكن الذكر ذريعة يسوون بها قواعدهم ويجرونها على الوجه الذي يريدون من دون أن يعابوا بصحة ذلك عقلاً أو استقامته اسلوباً . ومن فرائد الاستعمال القرآني ورود الفعل غير محتاج الى الفاعل لأنه مطلق غير مقيد بفاعل ما ، بل يصلح له كل ما يحتمل أن يقوم به . مثال ذلك قوله تعالى في سورة النور :

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا (١) » .

وهذا شديد الشبه بالخبر المحذوف - على حد قولهم - حين يتعلق به الجار والمجرور أو الظرف ، فيقدرونه بكائن أو موجود ، وهو في حقيقته تعلق بالكون العام وهو فعل الكائنات جميعاً أو بعبارة أدق هو وصفها الذي لم تعد حاجة لذكره لأنه ينتظمها كلها ، سواء وصفت بغيره كأفعال الكون الخاص - وهي سائر الأفعال - أم لم توصف ، وتفسير ذلك أن كل موجود في هذا

الكون كائن ، فهو قد كان أو يكون أو هو كائن ما لم يسند اليه وصف آخر كالقيام والقعود والمشي والوقوف وسوى ذلك من الأفعال .

وقد استغنت العربية عن ذكر هذا الفعل - الكون العام - بالخبر وهو اسم فيه معنى الوصف بخلاف اللغات الحديثة وأكثر ما نعرف من اللغات ، الذي يسميه دارسو تلك اللغات فعل الكينونة . ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الحجرات :
« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ^(١) » .
يقول الزمخشري في إعراب هذه العبارة : في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر صبروا ^(٢) .

(١) الآية / ٤ ، ٥

(٢) الكشف ج ٤ ص ٨

الفصل الثالث

المفعول

و كثيراً ما يرد في العبارة القرآنية الفعل المتعدي إلى المفعول ولا مفعول بعده ، والأمثلة على ذلك كثيرة والذين اشتغلوا بأعراب القرآن أقل تعسفاً في توجيهها وأدنى إلى الصواب وأقل جنوحاً عن جادة الصواب .

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(١) .

يقول الزمخشري : مفعول (شاء) محذوف لأن الجواب يدل عليه

والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها (٢) .

وعجيب أن يدل آخر الكلام على أوله ، والمألوف أن يحذف

(١) الآية / ٢٠

(٢) الكشف ج ١ ص ٤٣

الجواب لدلالة الشرط عليه ، أو أن يحذف أي جزء من الكلام
لدلالة ما قبله عليه .

والحق ان ورود الفعل المستحق للمفعول بلا مفعول ، إنما
يكون مقصوداً به إطلاق الفعل في كل ما يسمح المقام بتصوره
مفعولاً لذلك الفعل دون النص على أسم بعينه ، مثال ذلك قوله
تعالى في سورة الليل :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » (١) .

ويؤيد ذلك قول الزمخشري في إعراب قوله تعالى :

« وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » (٢) .

قال : رأيت ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم كأنه
قليل وإذا أوجدت الرؤية (٣) .

إن هذا الأسلوب في الاستغناء عن الفاعل أو المفعول والاكتفاء
بالفعل يدل على أن الفعل وحده قد يكون وافر الدلالة واسع المعنى
بحيث يقوم وحده مقام التركيب بطرفيه ، وهذا أمر لم يقدروا
على التصريح به ، وأنى لهم أن يقبلوا به وهم يبدأون بحشهم
لنحو بتعريف الكلام : أنه اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن
السكوت عليها .

أما اجازتهم عدم ذكر المفعول فمردها إلى أنهم يذهبون إلى

(١) الآيات ٥ - ٧

(٢) سورة الانسان ، الآية / ٢٠

(٣) الكشاف ج ٤ ص / ١٧٠

ان المفعول فضلة ، والفضلة يجوز حذفها إن دل عليها دليل
وقد تحذف وإن لم يدل عليها دليل .
والمقصود بوجود الدليل ذكر سابق على مكان الحذف ، وقد
أسلفنا أن الإيجاء بمعنى ما يحتمل ذكره كثير الورود في الكتاب
العزیز ، حتى في عمدة الكلام كالمبتدأ والخبر والفاعل ونحو ذلك .

الفصل الرابع

حذف القول

ومما يكثر وروده في العبارة القرآنية حكاية القول دون العناية بذكر القول ، وهو اشبه ما يكون بلوحة اسقط منها ما لا حاجة به من خطوط ابتغاء التنويه بجوهر الموضوع أو صورة قصد فيها الى اهمال ما لا يتعلق بالمعنى أو الفكرة التي أريد التعبير عنها والالتفات الى الأصل والأساس . وفيه أيضاً ضرب من ضروب الانقطاع الذي يحمل السامع أو القاريء على توقع أمر ذي بال ، ولو اتصل الكلام لما أثار قدراً من الانتباه والاهتمام مثل الذي يثيره الانقطاع ، كالذي يسير في طريق ممهدة لاجبة تقوده قدماء حتى لا يعود يتلفت حوله ولا يتنبه لما يحيط به حتى يفجأه انحراف في الطريق أو التواء ، أو انقطاع ، يسلم الى منحدر أو مرتقى فيفتح عينيه ويرهف حواسه لما يأتي بعد ذلك الانقطاع .

تأمل قوله تعالى في سورة القصص :

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
أَنْ يَأْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ
الْأَمِينِينَ » (١)

وفي سورة فاطر :

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ
تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » (٢)

ألا ترى كيف يقرع بهذا الانتقال والالتفات أسماعاً غير
مصغية ويهز مشاعر غير صاغية .

وأكثر ما يكون الأسلوب حيث يراد إبراز المعنى إبرازاً يزيد
في قيمته وفي أهميته حتى لو حكي على لسان من يراد التنديد
بهم والسخرية منهم ، مثال ذلك ما جاء في سورة الزمر :

« فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفًا » (٣) .

(١) الآية / ٣٠ ، ٣١

(٢) الآية / ٣٦ ، ٣٧

(٣) الآية / ٢ ، ٣

وفي سورة الأحقاف :

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ - أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا (١) »

ولعل من أهم ما يلاحظ في هذا الأسلوب أنه ضرب مما يعرف
عند أهل البلاغة بالالتفات ، وهو التفات ينتقل فيه الكلام من
الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب ، أو ينتقل فيه من
الخبر إلى الأنشاء أو من الإنشاء إلى الخبر ، فمن أمثلة الانتقال الأول
قوله تعالى :

« وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ، يَا أَيُّهَا
الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢) .
وقوله تعالى :

« فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَائِظُونَ (٣) .

ومن أمثلة الانتقال من الخبر إلى الأنشاء قوله تعالى :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) . »

(١) الآية / ٢٠

(٢) سورة المؤمنون ، الآية / ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الشعراء ، الآيات / ٥٣ - ٥٥

(٤) سورة البقرة / الآية / ١٢٧

وقوله تعالى :

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (١) .

وقوله تعالى :

« وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » (٢) .
ونحن نلاحظ في أكثر هذه المواضع أن المقول مسبوق بـ «بإملاء» تدل عليه وتنبئ به دون تصريح بفعل القول ، وذلك أمر لا يكفي به النحاة ولا يسكتون عليه وإنما يقدرّون فعل القول مضمراً ، قال الزمخشري في :

« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » (٣) .
« إن هؤلاء محكي بعد قول مضمراً » (٤) .

إن في هذا الأسلوب الجميل أكثر من مظهر واحد من مظاهر الفنية التعبيرية فهو مركب من الحذف النحوي والإيجاز والفصل لشبه كمال الانقطاع والالتفات .

(١) سورة آل عمران ، الآية / ١٩٠ ، ١٩١

(٢) سورة الانبياء ، الآية / ٩٧

(٣) سورة الشعراء ، الآية / ٥٣ ، ٥٤

(٤) الكشف ج ٣ ص / ١١٥

و كثرة وروده في العبارة القرآنية أمر يدعو إلى التأمل فقد
عددت أكثر من عشرين موضعاً لم يرد فيها فعل القول بلفظه
أو بمعناه ، على الوجه الذي وضع النحاة حدوده حين بحثوا مسألة
(ان) المفسرة (١) .

وشيوع هذا الأسلوب ينقض قواعدهم في الحكاية ومقول
القول ، ويؤمى إلى أصل في التركيب لم يرد له عندهم ذكر
ذلك أن الكلام المحكي يكفي أن يسبقه ما يوحى بوروده غير
مقيد بصيغة فعل القول (قال وما يشق منها) . ولا بصيغة فيها
معنى القول مثل ذكر وأوحى ونحو ذلك .
لننظر في مثل قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (٢)
وفي قوله تعالى :

« يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (٣) .

ليس في ما يسبق القول المحكي من الكلام ما يوحى به ؟ أليس
لسان الحال عند أولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً

(١) مغني اللبيب .

(٢) سورة آل عمران ، الآية / ١٩١

(٣) سورة التوبة / الآية ٣٥

وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ، هو الذي يقول : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، الاية .

أوليس لسان الحال بالنسبة للذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هو الذي يخاطبهم قائلاً : هذا ما كترتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكثرون .

ولسان الحال الذي افضنا في الحديث عنه ليس مما يتعلق به بحث النحاة ، لأنهم ألزموا أنفسهم باستبعاد المعاني وصرفها الى ما سمي علوم البلاغة ، وهي في الحق معاني النحو التي لا يستقيم النحو إلا بها ولا تستقر قواعده إلا عليها ، وهذا أمر تنبه له غير واحد من الباحثين في مسائل النحو ونقد منهجه ، ولعل أولهم في عصرنا هذا المرحوم الأستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه الجليل : (إحياء النحو) .

وليس هذا البحث مجالا للخوض في هذه المسألة فانها تستأهل أن يفرد لها جهد مستقل ، ولكنها على كل حال واحدة من أهم قضايا العربية ، وعلة من أهم العلل التي جعلت من النحو هذا العلم الذي اختلطت فيه الغاية بالوسيلة ولم تسلم فيه الموازين من الارتباك والاضطراب .

والحديث عن قضايا الحذف والذكر ، والایجاز والاطناب

امر صرفه علماء العربية إلى علم المعاني ، ولا سيما حين يكون الحذف مما يجوزُه النحاة ، أما الحذف الواجب - بزعمهم - فهو من قضايا النحو ومسائله .

ولكن حديث النحاة عما يجوز حذفه أو لا يجوز لم يحط بالاستعمالات الواردة في العبارة القرآنية .

من ذلك حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه ، في أسلوب تفردت به العبارة القرآنية ، وقضت قواعد النحاة أن يهجر فلا يستعمله المنشئون ، ويكثر ذلك حين يكون المحذوف المتصور علة لما قبله ، أو بعبارة النحاة مفعولا له أو سبباً ، من ذلك قوله تعالى في سورة هود :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » (١).

قال الزمخشري : أن يقولوا مخافة أن يقولوا (٢)

وقال أيضاً في قوله تعالى من سورة النحل :

« وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » (٣) . كراهة أن تميل بكم وتضطرب (٤)

(١) الآية / ١٢

(٢) الكشف ج ٢ / ص ٢٠٩

(٣) سورة النحل ، الآية / ١٥

(٤) الكشف ج ٢ ص ٣٢٤

وفي قوله تعالى من السورة عينها :

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ

دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ » (١) : بسبب ان تكون... (٢)

وفي قوله تعالى من سورة الاسراء :

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » (٣) . كراهة

أَنْ يَفْقَهُوهُ (٤)

ومثل ذلك كثير منه أيضاً قوله تعالى في سورة الانبياء :

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » (٥)

وفي سورة النور :

« يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » (٦) .

وفي سورة الزمر :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ

وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ » (٧) .

وفي سورة الحجرات :

(١) سورة النحل ، الآية / ٩٢

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٣٤٢

(٣) الاسراء ، الآية / ٤٦

(٤) الكشف ج ٢ ص / ٣٦٣

(٥) الآية / ٣١

(٦) الآية / ١٧

(٧) الآية / ٥٥ ، ٥٦

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » (١) .

ويكثر في الاستعمال القرآني إقامة الوصف مقام الموصوف والموصوف عمدة مبتدأ أو نحو ذلك .

والوصف من قبيل ما يسمونه الفضلة التي لا تقوم بذاتها - على حد ما يدعون - وإنما تتعلق بمحذوف كما يذهب إليه الأكثرون .
من ذلك قوله تعالى في سورة النساء :

« وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا » (٢) .

وفي سورة الصافات :

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » (٣) .

وفي سورة مريم :

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا » (٤) .

ويلحظ أن ذلك يكثر وروده في جملة النفي ، حين يكون معنى المنفي عاماً لاحتاجة لذكره ، كلفظ « أحد » ونحوه ، ولكنه يرد أيضاً في غير جملة النفي كقوله تعالى في سورة الاعراف :

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ

(١) الآية / ٦

(٢) الآية / ١٥٩

(٣) الآية / ١٦٤

(٤) الآية / ٧١

بالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١) »

يقول الزمخشري في إعرابها : محله « اي الظرف » الرفع وهو صفة لموصوف محذوف ومعناه ناس منحطون عن الصلاح ، ونحوه ومأمنا إلا له مقام معلوم (٢) .

وواضح ان التقدير : الذي تلجئهم إليه قواعد النحو ، يخل بمعنى العبارة ويمسح معناها ويذهب بالكثير من فنية التعبير ، وواضح أيضاً أن المقصود إيثار الوصف بالذكر لأن الموصوف واحد من اثنين إما اسم عام لا يتعلق به الغرض ذكر أم لم يذكر ، وإما لفظ سبق في الكلام ما يشير إليه أو يدل عليه .

وكثيراً ما يجري التعبير القرآني على صور من الإيجاز والاكتفاء لا تحيط بها قواعد النحو ، مثل الاكتفاء من الجملة الفعلية أو الاسمية بجار ومجرور ، كقوله تعالى في سورة الاسراء :

« إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » (٣) .

ولننظر في قوله تعالى في سورة البقرة :

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ

فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » (٤) .

فقد اكتفى من جملة الجواب بالحال دون ذكر الفعل وفاعله

(١) الآية / ١٦٨

(٢) الكشف ج ٢ ص ١٠١

(٣) الآية / ٧

(٤) الآية / ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

ومفعوله ، لأنه معلوم لاحاجة لذكره .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الانعام :

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ
أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (١) .

فان جواب الشرط الأول والثاني لم يذكر مع أنه لم يسبق
له ذكر ومع ذلك فمعناه مفهوم مستفاد من العبارة بجملتها .
ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النور :

« وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ » (٢) .

وشبيه به في الاكتفاء بما يتعلق به الغرض ، قوله تعالى في سورة
المعارج :

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » (٣)

ذلك أن فعل الكون واسمه مما لاحاجة لذكره لأن الكلام
يدل عليه فاكفي بقيده المعنوي وهو الخبر لأن الجملة كلها
مسوقة للنص عليه .

واذا جاز ذلك في فعل الكون وفي ما يشتق منه ، لأنه يدل
على العموم ويمكن ان يستدل عليه من السياق ، فقد ورد في غيره

(١) الآية / ٣٥

(٢) الآية / ٢٠

(٣) الآيات / ١٩ - ٢٠

من الافعال اذا علم معناها واستدلّ عليه من السياق .
قال تعالى في سورة التوبة :

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً » (١) .

يقول الزمخشري : « كيف تكرر لاستبعاد ثبات المشرّكين على العهد ، وحذف الفعل لكونه معلوماً » .

تلك أمثلة للايجاز بالحذف لم يستقصها النحاة ولم يحيطوا بها ذكراً ، ولعلمهم وجدوها تخالف ما ألزموا به أنفسهم من لزوم ذكر العمدة في الكلام ، ولو أنهم التزموا أسلوب البحث العلمي لجعلوا من كل تلك الاستعمالات القرآنية أسساً لقواعدهم ولأوسعوا بذلك مجال التصرف في فنون التعبير ، ولأفسحوا طريق الاقتداء بأساليب العبارة القرآنية مما يزيد صور التعبير نماء وثراء .

الفصل الخامس

حُرُوفُ الْجَرِّ

إن من أهم وسائل التعبير الدقيق اتقان استعمال الحروف ،
ولاسيما حروف الجر . فان لها معاني يتميز بعضها عن بعض بحيث
تؤدي ادق المعاني لوجاء الحرف في موضعه .

وأعقد ما في حروف الجر أنها كثيرة ، وأن لكل منها في
الغالب أكثر من معنى واحد .

وكثيرا ما تتداخل تلك المعاني وتختلط على غير الخير بالأساليب
البليغة الماثورة .

وظيفة حروف الجر في الجملة العربية إبلاغ معنى الفعل أو ما هو
في حكمه الى صورة من صور المفعول أي المتأثر بالفعل ، وهذه الصور
عديدة عدد حروف الجر ، فمنها صورة المفعول به والمفعول فيه

والمفعول له والمفعول منه والمفعول عنه والمفعول إليه والمفعول عليه .
والمقصود بما هو في حكم الفعل الأسماء المشتقة والمصادر ، سواء
منها ما يجب ذكره ان كان من قبيل الكون الخاص وهو سائر
الأفعال ، أم ما يجب أو يجوز حذفه ان كان فعل الكون العام وما
يشتق منه كالذي يتعلق به الجار والمجرور والظرف .
وحروف الجر قيود معنوية قد يقتضي المقام إثباتها وقد يحتمل
حذفها والاستغناء عنها .

ولنضرب لذلك مثلاً بحرف كثير التداول شائع الاستعمال
وهو « في » المستعمل لمعنى الظرفية ، فانه يحذف باطراد إذا كان ما
بعده اسماً دالاً على معنى الزمان أو المكان فيقال له الظرف ويذكر
غالباً إن لم يكن الاسم من الظروف المختصة على حد ما يقول
النحاة .

والأصل والأساس أن تثبت حروف الجر لأنها حروف معان
لا يفهم مدلولها إلا إذا ذكرت . ويزعم النحاة أنها يجوز حذفها
في حالة عبروا عنها بقولهم : إذا تعين الحرف ومكان الحذف .
وعدوا كل ما عدا ذلك شذوذاً مقيداً بالسمع لا يجوز أن يقاس
عليه واستشهدوا لمثل ذلك بقول القائل :

لَدَنْ يَهْزُ الكَفُّ يَغْسُلُ مِثْنَهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ (١)

(١) البيت لساعدة بن جؤية ، وهو من شواهد الكتاب ، ج ١ ص ١٦ / ثم ١٠٩

على ان العبارة القرآنية تؤسس قاعدة اوسع واشمل وتفضي
إلى أساليب في التعبير رحيبة منطلقة ، دقيقة في الوقت نفسه متقنة .

قال تعالى :

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . » (١)

ومعلوم أن قعد لا يتعدى بنفسه وإنما يصل الى ما بعده بحرف
الجر ولذلك يقول الزمخشري : « وانتصابه على الظرف كقوله
كما غسل الطريق الثعلب ، وشبهه الزجاج بقولهم ضُرب زيد الظهر
والبطن أي على الظهر والبطن » (٢) .

وقال تعالى في سورة التوبة :

« فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ . » (٣)

يقول الزمخشري : « وانتصابه على الظرف كقوله لأقعدن لهم
صراطك المستقيم » (٤) .

وتوجيه الظرفية لايتأتى في كل موضع ، بل إن بعض المواضع
يأباه . من ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم :

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) سورة الاعراف ، الآية / ١٦ .

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٥٦

(٣) الآية / ٥

(٤) الكشف ج ٢ ص / ١٤٠

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . » (١)

فيقول فيه الزمخشري : « والأصل (كذا ! ؟) ويبغون لها عوجاً
فحذف الجار وأوصل الفعل » (٢) .

وواضح أن التماس معنى الظرفية يدخل المسألة في باب القياس
لأن الظرف كما يعرفونه : « وقت أو مكان ضمن معنى (في)
باطراد » وليس في ما عدا ذلك متسع للقياس عندهم .

ومما يقذف بالنحاة في لحج الحيرة والتخبط قوله تعالى في سورة
النساء :

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » (٣) .

لأن الفعل « رغب » يصل الى المفعول بحرفين يؤديان معنيين
متعاكسين ولا بد من ذكر أحدهما إذا أريد معنى بعينه ، فإذا
قيل « رغب في » دل على معنى الرغبة الإيجابية ، وإذا قيل « رغب
عن » دل على معنى الرغبة السلبية ، وحذف الحرف هنا يوقع
في اللبس على حد ما يزعمون ، يقول ابن مالك (٤) :

وَعَدٌّ لِأَزْمَاءٍ بِحَرْفٍ جَرٍّ فَإِنْ حُذِفَ فَالْنَّصَبُ لِلْمُنْجَرِّ

(١) سورة إبراهيم ، الآية / ٣

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٢٩٣

(٣) سورة النساء ، الآية / ١٢٧

(٤) شرح ابن عقيل ج ١ ص / ٢٠٩

نقلًا وفي أَنَّ وَأَنَّ يَطْرُدُ مَعَ أَمْنٍ لِبَسٍ كَعَجِبْتَ أَنَّ يَدُوا
ولذلك يقول الزمخشري في توجيه هذه المسألة : « يحتمل في
أن تنكحوهن لجمالهن وعن أن تنكحوهن لدمامتهن » (١) .
وكان بعض أساتذتنا يذهب في تأويل هذه الآية مذهباً
آخر فيقول : إن الرغبة ههنا « في » أو « عن » مستوية ، ومن أجل
ذلك حذف حرف الجر (٢) .

واحسب ان الامر هنا ايسر مما يذهبون اليه ، لان معنى الفعل
اصلاً هو المعول عليه ، والحرف هو الذي يحدد علاقته بالمفعول
سلباً أو إيجاباً ، والأصل في الرغبة أن تكون ميلاً إيجابياً الى
المرغوب ، أي أن تكون رغبة في الشيء .

إما الرغبة عن الشيء فهي الفرع الذي لا يعرف إلا بذكر
الحرف « عن » وهذا المعنى هو الذي يقضي إثبات الحرف أما
حذف الحرف فيصرف معنى الفعل الى أصله وهو الرغبة في الشيء
وإذن فلا محال للالتباس على الإطلاق .

وصفوة القول إن حروف الجر بمعانيها العديدة من ظرفية
وابتداء غاية واستعلاء ومجازة ونحو ذلك إنما تقوم بوظيفة في
الكلام معنوية بالدرجة الاولى وهي تحديد علاقة الفعل بما يتأثر

(١) الكشف ج ١ ص ٣٠١ /

(٢) ذلك، أستاذنا طه الراوي عليه رحمة الله .

به وهو في الحقيقة مفعول كما سلف القول .

وقد يعدل أحياناً عن هذا التحديد بقصد إطلاق الفعل من القيد

المعنوي بحرف الجر كالذي في قوله تعالى :

« وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ » (١)

فان المقصود هنا إطلاق المعنى من قيد الظرفية أو الاستعلاء او نحو ذلك على خلاف ما ذهب إليه الزمخشري حيث ذكر أنه منصوب على الظرفية ، وإنما المقصود التوسع الذي يشير إليه بعض النحاة حين يقولون باسقاط حرف الجر توسعاً .

وقد نجد في العبارة القرآنية عكس هذا الاستعمال فعلا يصل إلى مفعوله بنفسه عادة ، ثم يراد تقييد وصوله إلى المفعول بمعنى من المعاني التي يدل عليها حرف من حروف الجر كما في قوله تعالى في سورة النور :

« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢)

فمعنى « عن » هنا مقصود تقييد الفعل به ليستفاد مع المخالفة معنى الاصرار والعناد والاعراض عن امر الله قصداً ، والافالمخالفة المطلقة قد تكون عن غفلة أو جهل أو عدم مبالاة ، وهي إذن لا تنطوي في حكم أن تصيب المخالف فتنة أو يصيبه عذاب أليم .

(١) من الآية / ٥ ، سورة التوبة .

(٢) الآية / ٦٣ .

ولهذا نجد العبارة القرآنية تتصرف في حروف الجر تصرفاً
لاتوافقها قواعد النحو ، ولا أصول اللغة التي قصرت في الاحاطة
به فانتقصت من الدقة في اداء المعاني على الوجه الذي أدته العبارة
القرآنية ، ولقد فطن الزمخشري إلى شيء من هذا فقال في قوله
تعالى من سورة النمل :

«حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» (١).
فإن قلت : لم عُدي «أتوا» بـ «على» قلت : يتوجه على معنيين
أحدهما : إن إتيانهم كان من فوق فأتي بحرف الاستعلاء كما قال
أبو الطيب :

«وَلَشَدَّ مَا قَرُبْتَ عَلَيْكَ الْاِنْجُمُ» (٢).

لما كان قريباً من فوق .

والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره (٣) .

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة القصص :

«وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ» (٤).
فإن «حين» اسم زمان ، والفعل إنما يصل إليه عادة بحرف الظرفية
«في» ولكن هذا الدخول كان أيضاً من فوق أشبه شيء بالانقضاض

(١) الآية / ١٥

(٢) ديوان المتنبي (شرح المكبري) ج ٣ صفحة / ١٣٠

(٣) الكشف ٣ / ١٣٧

(٤) الآية / ١٥

ومعنى الاستعلاء هنا يشعر بالمفاجأة والمباغته وكل هذا لايتأتى من حرف الظرفية سواء ذكر أم حذف .

على أن بعض النحاة يسمى مثل هذا الاستعمال التضمين ويريد به تضمين الفعل معنى فعل آخر قريب منه في معناه ، وفي هذا مافيه من إخلال بدقة المعنى وعبث بالمدلول اللغوي لكل لفظ من الألفاظ .

والى ذلك يذهب الزمخشري أحياناً ، كالذي ذهب إليه في قوله تعالى من سورة الأحزاب :

« إِنْ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا » . (١)

فقال :

« وعدي (تفعلوا) بـ (إلى) لأنه في معنى تسدوا وتولوا » (٢) .
والظاهر أن الفعل في كل موضع بمعناه لا يخرج عليه وإنما يقيد المعنى بالحرف كما أسلفنا ، ومما يؤيد ذلك ويدل عليه قوله تعالى في سورة الصافات :

« فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . » (٣)

(١) الآية / ٦

(٢) الكشف ج ٣ صفحة / ٢٢٨

(٣) الآيات ٩١ - ٩٣

فقد جيء بـ « الى » اولا لأن المعنى المقصود انتهاء الغاية والفعل « راغ » يصل إلى مفعوله بها في العادة .

ثم لما اريد معنى الاستعلاء الذي يوافق روع الضارب المستولي على ما يضرب جيء بـ « على » والفعل هو هو لم يتغير ولم يتحول عن مدلوله اللغوي .

ويزيد ذلك إيضاحاً فعل كثير الاستعمال وهو « مر » فانه يصل إلى المفعول عادة بحرف الالصاق وهو الباء ، قال تعالى :
« وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » (١) .

ولكن حين يراد المرور الفوقي الذي لا يلبث ولا يلتصق يؤتى بعلى كقوله تعالى في سورة الصافات :

« وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفْلاً تَعْقِلُونَ » (٢) .
وكقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » (٣) .

ومما يشعر بقيمة حرف الجر ومكانه في العبارة ما جاء في قوله تعالى في سورة ص :

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » (٤) .

(١) سورة المطففين ، الآية / ٣٠

(٢) الآية / ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) سورة يوسف ، الآية / ١٠٥

(٤) الآية / ٣١ ، ٣٢

وقوله تعالى في سورة فصلت :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » (١).

وقوله تعالى في سورة الأحقاف :

« قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » (٢).

فكل حرف من هذه الحروف يغني عن جملة ويوحي معناه بأكثر مما ألف أهل العربية ان يستدلوا عليه ، ولذلك يقول الزمخشري في الآية الأخيرة : فان قلت ما معنى « في » في قوله تعالى :

« وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » قلت : معناه أن يجعل ذريته موقعاً للصالح ومظنة له كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي وواقعهم فيهم (٣).
أولا ترى أن « عن » في قوله تعالى :

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » (٤) . تساوي أن يقول القائل إني أحببت حب الخير وأعرضت وصددت عن ذكر ربي ، وكل هذا مستفاد من الحرف وحده ؟ وهل يكون قول القائل لا تسمعوا هذا القرآن مساوياً من حيث القصد لقوله تعالى :

(١) الآية / ٢٦

(٢) الآية / ١٥

(٣) الكشف ج ٣ ص ٤٤٦

(٤) سورة (ص) ، الآية / ٣٢

« لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ (١) » .

ليس في اللام إشعار بان القصد لاتنصتوا له ولا تصغوا إليه ؟ أي أن السماع مجرداً لا يمكن أن يكون موضع النهي لأنه قد يتعرض له كل واحد ، وإنما الذي ينهي عنه الذين كفروا السماع المقترن بالانتباه والاصغاء والانصات .

على أن الذي ينعم النظر في كلام النحاة على حروف الجر يتبين انهم معنيون بجانب الاعراب قبل كل شيء ، أما جانب المعنى فامرهم عندهم هين ، إذ يقع الحرف عندهم موقع حرف آخر ، او يضمن الفعل معنى فعل قريب من معناه . وهذا يدل بوضوح على تجاهل الجانب اللغوي وانعزال قواعد النحو ومسائله عنه كأن التركيب مؤلف من مفردات تجردت عن مدلولاتها اللغوية .

(١) من الآية / ٢٦ ، سورة فصلت

الفصل السادس

غَيْرُ وَسْوَى

إن الكلام على إهمال الجانب اللغوي في قواعد النحو ومسائله يجر الى امر يبدو فيه هذا الإهمال او التجاهل في صورة واضحة كل الوضوح . ذلك ان حروف الجر ونحوها قد يغتفر فيها على نحو ما إغفال مدلولها اللغوي ومعناها الذي وضعت له لأنها كما يقولون تؤدي معانيها في غيرها كسائر الحروف .

ولكن الذي لا يمكن ان يقبل في العقل أو الواقع تجريد الأسماء او الأفعال من معانيها والحاقها قسراً بالأدوات التي يباعد استعمالها استعمال الحروف بينها وبين ما وضعت له أصلاً ، ومن ذلك أنهم يعدون (غير وسوى) أداتين للاستثناء ، ثم يرتبون على ذلك أموراً في الاعراب ما أنزل الله بها من سلطان ، فيقولون في

« غير » إنها تعرب إعراب ما يقع بعد « إلا » لو حلت محلها .
ويقولون في « سوى » إنها تعرب إعراب الظرف على رأي
بعضهم وإعراب « غير » بالحكم الذي سبق بيانه .
أما « سوى » فمادتها اللغوية تدل على أن معناها نقيض معنى
« غير » ولم ترد في الكتاب العزيز إلا بهذا المعنى :

« فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى »^(١) .
والمد لـ « في » كما يقول ابن مالك في الألفية^(٢) ، قال تعالى :
« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ »^(٣) .
ولم أجدها في شواهدهم بمعنى الاستثناء إلا في قول الفند
الزمانى :

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدَا
نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا^(٤)

وتفسير ذلك آت بعد .

أما « غير » فهي في أصلها وحقيقتها وصف كـ « مثل » تقع
صفة أو حالا كسائر الأوصاف ، وقد تقوم مقام الموصوف فتعرب
حسب موقعها من الكلام .
قال تعالى :

(١) سورة طه ، الآية / ٥٨

(٢) بقوله : ولسوى سوى سواء اجعلا

شرح ابن عقيل ص / ٢٤٥

(٣) سورة آل عمران ، الآية / ٦٤

(٤) شرح الحماسة ، للمرزوقي ج ١ صفحة / ٣٥ .

« كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » (١).
وقد نص الزمخشري على ذلك مع قوله بنصبها على الاستثناء في
قوله تعالى :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » (٢).

فقال في « غير » : قرئ بالحركات الثلاثة فالرفع صفة لـ : « القاعدون » ،
والنصب استثناء منهم أو حال عنهم ، والجر صفة للمؤمنين (٣).
وقال في قوله تعالى من سورة المائدة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى
عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِيِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ » (٤) . غير محلي الصيد نصب
على الحال من الضمير في لكم (٥) .

والى مثل ذلك ذهب الفراء ، وزاد الأمر ايضاحاً فإشار الى معنى
الوصفية فيها ، وعرض لمعنى الاستثناء فاطرحه ولم يأخذ به ، قال :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ » (٦).
برفع « غير » لتكون كالنعت للقاعدين كما قال تعالى :

(١) سورة النساء ، الآية / ٥٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٩٥

(٣) الكشف ج ١ ص / ٢٩١ .

(٤) الآية / ١

(٥) الكشف ج ١ ص / ٣٢٠

(٦) سورة النساء ، الآية / ٩٥

« صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ » (١).

وكما قال تعالى :

« أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ » (٢).

وقد ذكر أن « غير » نزلت بعد أن ذكر فضل المجاهد على القاعد فكان الوجه فيه الاستثناء والنصب .

إلا أن اقتران غير بالقاعدين يكاد يوجب الرفع لان الاستثناء ينبغي أن يكون بعد التمام ، فتقول في الكلام « لا يستوي المحسنون والمسيئون إلا فلاناً وفلاناً » .

وقد يكون نصباً على أنه حال كما قال :

« أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُثْلِي عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ » (٣).

ولو قرئت خفضاً لكان وجهاً تجعل من صفة المؤمنين (٤) .

واحسب أن الذي حملهم على إدراجها في باب الاستثناء هو مدلولها اللغوي الذي يشتمل على معنى المخالفة ، هذا من جهة ، ووقوعها منصوبة على الخلاف في مواضع بعينها من جهة أخرى ، على أن رعاية الجانب اللغوي تنفي هذا الذي ذهبوا إليه تمام النفي ويتجلى ذلك اوضح ما يكون في العبارة القرآنية التي لم ترد فيها « غير »

(١) سورة الفاتحة ، الآية / ٧

(٢) سور النور ، الآية - ٣١

(٣) سورة المائدة الآية - ١

(٤) معاني القرآن ص / ٢٨٣ - ٢٨٤

إلا وصفا على سبيل النعت أو على سبيل الحال كما اسلفنا ، أو
حالة محل الموصوف ، واقعة موقعه من الكلام ، من ذلك قوله
تعالى في سورة الانعام :

« قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » (١).

وفي سورة الاعراف :

« قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٢).

وفي سورة التوبة :

« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » (٣)

وفي سورة آل عمران :

« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » (٤).

وفي سورة هود :

« فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ » (٥) .

أما سوى فلم ترد في العبارة القرآنية على الوجه الذي يزعم النحاة
أبدأ ، بل لقد التفت الفراء إلى الجانب اللغوي فيها فنفى أن تكون
« غير » بمعناها ، فقال في قوله تعالى من فاتحة الكتاب :

(١) الآية / ١٤

(٢) الآية / ١٤٠

(٣) الآية / ٢

(٤) الآية / ١٥٤

(٥) الآية / ٦٣

« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . »

واما قوله تعالى « ولا الضالين » فان معنى « غير » معنى « لا » فلذلك ردت عليها ، هذا كما تقول : فلان غير محسن ولا مجمل فاذا كانت « غير » بمعنى « سوى » لم يجز أن تكرر عليها « لا » . ألا ترى أنه لا يجوز عندي سوى عبد الله ولا زيد .

وقد قال بعض من لا يعرف العربية: إن معنى « غير » في الحمد معنى « سوى » وان « لا » صلة في الكلام (١).

وواضح ان الفراء يلحظ الفرق بين « غير » و « سوى » وينكر ما يذهبون اليه من استعمالهما بمعنى واحد ، وقوله في من ساوى بينهما في المعنى - انه بعض من لا يعرف العربية - دليل على ان احساس المعنى اللغوي وتصوره عند الاستعمال أو عند التفسير والاعراب أمر لا بد منه عند من يفقه العربية ويعيها ويشعر بها .

ولو صح أن « سوى » تستعمل في صورة من صور الاستثناء لكان هذا المعنى مستفاداً من السياق لا من الأصل اللغوي .

فلو قال قائل ما جاءني سوى زيد ، لكان معناه ابتداء ما جاءني مثل زيد وهذا قد يعني تبعاً أن زيدا مستثنى من حكم النفي في الفعل على وجه يشبه معنى المجاز أو الاتساع في الكلام .

(١) معاني القرآن ج ١ ص ٨ .

هكذا تؤصل العبارة القرآنية أساساً للقاعدة النحوية تنفي عنها
كل ما يجانب الدقة في استعمال الألفاظ . وتثبت أن العربية لا يمكن
أن تهمل جانب المدلول اللغوي في الألفاظ والأدوات لأن
اهماله يفضي إلى التهاون في دقة التعبير وفي أداء المعاني على الوجه
الصحيح .

الفصل السابع

المصدر، حروفه

المصدر لفظ واسع الدلالة كثير تداوله في الكلام ، لأن فيه من الاسم والفعل خصائص ومعاني عدة ، فهو على الرأي الراجح أصل ترجع إليه الأفعال ويشق منه كثير من الاسماء . وهو أيضاً اسم ذو علاقة بأسماء الذوات ثم تطورت دلالاته حتى أصبح يدل على المعنى أو ما يقال له عند النحاة معنى الحدث لأن الأصل في ألفاظ اللغة أنها توضع للمحسوس ثم تتحول عنه الى المدرك بالعقل .

والعبارة القرآنية تتداول استعمال المصدر بصورتيه الصريح والمؤول تداولاً واسعاً .

وتتسع في وظيفته في الكلام بحيث يرد عاملاً عمل الفعل

على غير الصورة التي يشترطها النحاة وهي إمكان وقوع أن والفعل
أو ما والفعل موقعه ، قال تعالى :

« قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا » (١).

وواضح هنا أن « جزاء موفوراً » منصوب بـ « جزاؤكم » ولكن
الزنجشري سيراً على سبيل النحاة الذين لا يجيزون لمثل هذا المصدر
أن يعمل لأنه لا ينحل إلى الحرف المصدرى والفعل ، يذهب إلى أنه
منصوب بفعل مضمر ، يقول : وانتصب جزاء موفوراً بما في (فان جهنم
جزاؤكم) من معنى تجازون أو باضمار تجازون أو على الحال (٢).

ولكنه لا يلبث أن يسلم بعمل المصدر غير القابل للتأويل بالحرف
المصدرى والفعل في موضع آخر ، في قوله تعالى من سورة النبأ :

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا » (٣).

يقول الزنجشري : عطاء نصب بجزاء نصب المفعول به أي جزاهم
عطاء (٤).

ومن لطائف الاستعمال القرآني كثرة ورود المصدر وصفياً
إما على سبيل الاسناد خبراً ، أو على سبيل النعت أو الحال .
قال تعالى في سورة الاسراء :

(١) سورة الاسراء ، الآية ٦٣

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٣٦٦ - ٣٦٧

(٣) سورة النبأ ، الآية / ٣٥ - ٣٦

(٤) الكشف ج ٤ ص / ١٧٩

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » (١).

و قال تعالى في سورة الكهف :

« فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ

« فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَأْوُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا » (٢).

والمصدر في الآية الأولى خبر المبتدأ ، وهم يزعمون أن اسم

المعنى لا يخبر به عن اسم الذات فتأمل .

وفي الآية الثانية خبر الفعل الناسخ .

وقال تعالى في سورة الفرقان :

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » (٣) .

يقول الزمخشري : هوناً حال أو صفة للمشي ، ... إلا أن في وضع

المصدر موضع الصفة مبالغة (٤) .

وهذا ديدن النحاة إذ إنهم يجنحون إما الى التأويل بتقديـر

مضاف حتى يكون هو والمصدر صالحاً لوصف اسم الذات أو

الاخبار عنه ، وإما الى تفسيره على صورة المبالغة والمجاز . على

أن شيوع هذا الاستعمال ووفرته يشعان بأن التأويل والتقديـر

وصرف المعنى الى المجاز والمبالغة أمور لا ضرورة لها ولا سبب ، بل

(١) سورة الاسراء ، الآية / ٤٧

(٢) الآية / ٤٠ ، ٤١

(٣) الآية / ٦٣

(٤) الكشف ج ٣ ص / ١٠٣

إنها قد تخرج العبارة عن المعنى الذي قصدت إليه ، وتأمل بعد ذلك هذه الأمثلة ، قال تعالى في سورة الملك :

« فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ^(١) » .

وقال تعالى في سورة الجن :

« قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ^(٢) »

ومن مظاهر الدقة التصرف في الحروف المصدرية تصرفاً يدل على فوارق لطيفة بين معانيها ، ف « ما » غير « أن » و « لو » غيرهما ذلك أن « ما » لاتقيد الفعل بعدها بزمن ، وإنما هي والفعل بمثابة الصلة والموصول ، وهي كثيرة الورد في آي الكتاب الحكيم ،

قال تعالى في سورة آل عمران :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ^(٣) »

وفي سورة التوبة :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(٤) » .

وفي سورة ص :

« بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ^(٥) » .

(١) الآية / ٢٧

(٢) الآية / ١

(٣) الآية / ١١٨

(٤) الآية / ١٢٨

(٥) من الآية / ٢٦

وفي سورة السجدة :

« فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » (١) .

و « ما » حقاً موصول حرفي لأنه يلحظ فيه معنى الموصولية
وفي الفعل الذي بعده معنى الصلة ، وكثيراً ما يصلح لتوجيه
معناه وجهة الاسم .

اما « لو » فملحوظ معناها الأصلي وهو الامتناع والاستحالة
قال تعالى :

« وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ
مِّنَ الْعَذَابِ أَنَّ يُعَمَّرَ » (٢) .

وقال تعالى في سورة الاحزاب :

« يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ » (٣) .

وتتجلى خصوصية « أن » في الاستعمال القرآني ، فهي كما
قالوا تخلص ما بعدها لمعنى الاستقبال ، ولا ترد في غير هذا المعنى ،
وترد اللام في موضعها أحياناً لأن اللام تدل على الاستقبال قال
تعالى في سورة التوبة :

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ

(١) من الآية / ١٤

(٢) من سورة البقرة ، من الآية / ٩٦

(٣) الآية / ٢٠

الدُّنْيَا» (١)

وفي سورة الصف :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ » (٢)

وفي سورة الأحزاب :

« إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ » (٣)

قال الفراء في قوله تعالى :

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ » (٤)

وقال في موضع آخر :

« وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ » (٥)

والعرب تجعل اللام التي على معنى كي في موضع « أن » في :

« أردت وامرت » فتقول : أردت أن تذهب واردة لتذهب وامرتك

أن تقوم ، وأمرتك لتقوم ، قال تعالى :

« وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » (٦)

وقال في موضع آخر :

(١) الآية / ٥٥

(٢) الآية / ٧

(٣) الآية / ٣٣

(٤) سورة النساء ، من الآية / ٢٦

(٥) سورة النساء ، من الآية / ٢٧

(٦) سورة الانعام ، الآية / ٧١

« قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ^(١) » .

وقال :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ^(٢) » . و « يريدون أَنْ يُطْفِئُوا ^(٣) » .

وانما صلحت اللام في موضع « أن » في أمرتك وأردت ، لأنهما يطلبان المستقبل ولا يصلحان مع الماضي ، ألا ترى أنك تقول أمرتك أن تقوم ولا يصلح أمرتك أن قمت ، فلما رأوا « أن » في غير هذين تكون للماضي والمستقبل استوثقوا لمعنى الاستقبال بكى وباللام التي في معنى كي ^(٤) .

وقد يحذف الحرف المصدري استغناء عما يدل عليه من معنى في الفعل بعده ، إذ إنه قد يرد لمحض الوصل بين فعلين ، أو لجعل الفعل في موقع الاسم .

قال تعالى في سورة الأنفال :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ^(٥) » .

يقول الزمخشري : وقيل فيه أصله ؛ « أن سبقوا » فحذفت « أن » كقوله :

(١) سورة الانعام ، الاية / ١٤

(٢) سورة الصف ، من الاية / ٧

(٣) سورة التوبة ، من الاية / ٣٢

(٤) معاني القرآن ص / ٢٦١-٢٦٢

(٥) سورة الانفال ، الاية / ٥٩

« وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ » (١) .

وهذا يدل أيضاً على مبلغ ما بين الفعل والاسم من علاقة تسمح بأن يكون الفعل في موضع الاسم ، ويدل أيضاً على موقع المصدر وسطاً بين الاسم والفعل ، بحيث يحل أحدهما محل صاحبه ويعمل عمله ويقوم بوظيفته في الكلام .

الفصل التاسع

رِسْمُ الْفَاعِلِ

ومما يلاقي الفعل ويعمل عمله في كثير من الأحيان ما يعرف عند النحاة باسم الفاعل ، ولسنا بصدد بحثهم في اسميته وفعليته واختلافهم في ذلك ومذهب أهل الكوفة في نعتة بالفعل الدائم لأن جانب الاسمية فيه بين لا مرأ فيه بدليل نقله الى العلمية كخالد وعامر وسالم ونحو ذلك ، ووقوعه موقع المسند إليه وإضافته وإلاضافة إليه واتصاله بأل .

أما إعماله إعمال الفعل فمرده في الحقيقة الى معنى الحدث الذي يقتضي وجود المحدث بالضرورة وهو الفاعل في الاصطلاح النحوي ، ثم قد يقتضي وجود ما يؤثر فيه وهو المفعول . أما زعمهم بأن اسم الفاعل يعمل لأنه يحمل على الفعل

المضارع من جهة لفظه ومن جهة معناه فمتهافت لا يقوم للاحتجاج لأن الموازنة اللفظية المدعاة غير قائمة في اسم المفعول الثلاثي وهو أيضاً مستحق للعمل ، وكذلك الصفة المشبهة . وأما من جهة المعنى التي يريدون بها دلالة كليهما على معنى الحال أو الاستقبال فهي مردودة بكونه اسماً لا يلزم فيه أن يتضمن معنى الزمن لأنه دلالة مختصة بالأفعال .

وقد زعموا أن اسم الفاعل لا يعمل إذا دل على الماضي وإنما يضاف إلى المفعول ، ولكن الاستعمال القرآني ورد بخلاف ذلك قال تعالى في سورة الكهف :

« وَكَلَبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » (١).

وهم يوجهونها على أنها حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى الماضي (٢) .

ومما ينقض قولهم هذا ماورد في سورة الانعام :

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكْنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » (٣).

(١) من الآية / ١٨

(٢) الكشف ج ٢ ص / ٣٨٣

(٣) الآية / ٩٥ ، ٩٦

فانت ترى انه عطف بالنصب على المجرور باضافة اسم الفاعل اليه لأنه - في زعمهم - بمعنى الماضي بدليل قراءة من قرأ :

« وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا »

على أنهم يقدرّون لنصب «الشمس» فعلا ماضياً لتستوي القاعدة .
ولكن ماذا يقولون في نصب المفعول الثاني باسم الفاعل الذي لا يجوز - عندهم - أن يعمل وهو قوله تعالى :

« وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا » (١).

وأكثر ما يرد اسم الفاعل في العبارة القرآنية مضافاً الى معموله كقوله تعالى في سورة الانعام :

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » (٢).

وفي سورة آل عمران :

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ » (٣).

وفي سورة هود :

« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ

آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » (٤).

وكثيراً ما ترد القراءة بنصب المفعول كما في الآية السالفة فقد

(١) سورة الانعام ، من الآية / ٩٦

(٢) الآية / ٩٢

(٣) الآية / ٩

(٤) الآية / ٢٩

قرئ وما انا بطارد الذين آمنوا بالتنوين على الاصل (١).
وقوله تعالى في سورة مريم :

« إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » (٢).
قال الزمخشري : وقرأ ابن مسعود وابو حيوة : آتِ الرَّحْمَنِ عَلَى أَصْلِهِ
قَبْلَ الْإِضَافَةِ (٣).

وقد يكون المشهور الاعمال ويقرأ بالاضافة كما في قوله تعالى ،
في سورة الشعراء :

« لَعَلَّكَ بِأَخْعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (٤).
قال الزمخشري : وعن قتادة رضي الله عنه : بِأَخْعُ نَفْسِكَ عَلَى
الْإِضَافَةِ (٥).

ويبدو لمن يستقصي استعمال اسم الفاعل في آي الكتاب الحكيم
أن اضافته الى معموله هي الشائعة الذائعة، وحتى المواضع التي ورد
فيها منوناً منصوباً معموله قد قرئ فيها بالاضافة .

ولعل أكثر ما ترد الاضافة حين يكون المعمول ضميراً لما في ذلك
من التسهيل والحنفة كقوله تعالى في سورة آل عمران :

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا »

(١) الكشف ج ٢ ص ٢١٤

(٢) الآية / ٩٣

(٣) الكشف ج ٢ ص / ٤٢٥

(٤) الآية / ٣

(٥) الكشف ج ٣ ص / ١٠٧

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا» (١) .

وفي سورة القصص :

« ... وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » (٢) .

واكثر ما يرد اسم الفاعل منونا منصوبا عامله حين يقع بينهما فاصل ،
ومما ورد فيه الاستعمالان الاضافة والتنوين في سياق واحد قوله

تعالى في سورة العنكبوت :

« وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا

تَجْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ، إِنَّا مُنْزِلُونَ

عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (٣) .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الصافات :

« فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » (٤) .

وفي سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٥) .

وفي سورة الزمر :

(١) سورة آل عمران ، من الآية / ٥٥

(٢) سورة القصص ، من الآية / ٧

(٣) الآية / ٣٣ ، ٣٤

(٤) من الآية / ٦٦

(٥) من الآية / ٣٠

« قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ » (١) .

« قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي » (٢) .

ولست أجد في دحض ما صنعوا من قاعدة لأعمال اسم الفاعل
أوضح من موقف الزمخشري حيث يقول في قوله تعالى :

« إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا » (٣) .

وقرى منذرٌ بالتنوين وهو الأصل والاضافة تخفيف وكلاهما يصلح
للحال والاستقبال ، فاذا أريد الماضي فليس إلا الاضافة كقولك
هو منذر زيد أمس (٤) .

ثم يقول في قوله تعالى من سورة « الكافرون » :

« وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » (٥) .

أي وما كنت قط عابداً في ماسلف ما عبدتم فيه يعني لم تعهد
مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الاسلام . . أي
وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته (٦) .

وهذا يدل على أن اسم الفاعل المنون يرد لمعنى المضي خلافاً لما
يدعون .

(١) من الآية / ١١

(٢) سورة الزمر ، الآية / ١٤

(٣) سورة النازعات ، الآية / ٤٥

(٤) الكشف ج ٤ ص / ١٨٤

(٥) الآية / ٤، ٣

(٦) الكشف ج ٤ ص / ٢٣٨

اما دلالة المضاف على المعنيين فقد نصوا عليها في أكبر من موضع كما أسلفنا الإشارة .

ولكن المهم في هذه المسألة أن معنى الزمن لا يمكن أن يكون جزءاً من اسم الفاعل وإن وردت الدلالة عليه في سياق الكلام لأنه في الحقيقة اسم ، وفيه معنى الحدث الذي يستدعي أحياناً كثيرة معنى الزمن بحكم أنه لازم لوقوع الحدث ، ولكنه زمن غير معين ولا محدد كتحديد في الأفعال ولا سيما بعض الصيغ كالماضي والمضارع حين يقترن بأدوات معينة . على أن ثمة فرقاً بين حالي التنوين والاضافة ، إذ التنوين يعني انفصاله عن المعمول وأن علاقته به محض علاقة إعمال يغلب فيها شبه الفعل ، بينما الاضافة امتزاج في الدلالة بين الاسمين وضرب من ضروب التعريف ولا عبرة بدعواهم أنها إضافة لفظية لا يكتسب الاسم المضاف بها تعريفاً ولا تخصيصاً ودليل ذلك قوله تعالى في سورة غافر :

« حَمَّ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (١) . »

وانظر الى قول الزمخشري في تأويل ذلك وإعرابه ، كيف يتخبط ويتناقض ثم لا يجد مندوحة من الاقرار بأن الأمر مشكل لا يحل إلا باعراب هذه الصفات التي لامراء في وصفيتها أبداً ،

يقول : فان قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً
والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف ، قلت اما غافر الذنب
وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر
الذنب ويقلل التوب الآن وغداً ، حتى يكونا في تقدير الانفصال فتكون
اضافتهما غير حقيقية ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان
حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش .

واما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه
لا ينفك من هذا التقدير . وقد جعله الزجاج بدلاً ، وفي كونه بدلاً
وحده بين الصفات نبوّ ظاهر ، والوجه أن يقال لما صودف بين
هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة فقد آذنت بأنها كلها أبدال غير
أوصاف (١)

أما معنى الثبوت والدوام فهو آت من معنى ما اشتق منه اسم
الفاعل ، لانه حين يشتق مما يدل على الوصف الثابت يقال له صفة
مشبهة كظاهر القلب ونحو ذلك . ثم انه شديد العقاب من باب
إضافة الصفة المشبهة الى فاعلها وهي عندهم إضافة محضة .

والصفة المشبهة عندهم هي التي يستحسن أن يجر فاعلها بها

(١) الكشف ج ٣ ص ٣٥٩

وهي من هذه الجهة تخالف اسم الفاعل لأنه يضاف الى مفعوله عادة . ولا عبرة بدعواهم أن فاعل الصفة المشبهة يجوز أن ينصب على التشبيه بالمفعول به لأنه لم يرد في المأثور من كلام العرب . نحو قولهم : زيد حسن الوجه ، وقياسهم اياه على زيد حسن وجهاً قياس باطل لأن هذا تمييز وهو لا بد ان يكون نكرة وهو تمييز محول عن الفاعل كما يقولون . ولا دليل في قول القائل : (وطبت النفس يا قيس عن عمرو) لأن ذلك من الضرورات الشعرية . وأظهر ما في العبارة القرآنية أن اسم الفاعل يضاف الى معموله حين يكون المعمول معرفة بالأداة او بالاضافة أو مخصصاً بالاضافة كقوله تعالى في سورة الزمر :

« اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (٢) .

وأكثر ما يرد المعمول منصوباً حين يكون نكرة حتى إن الاستعمال يشعر بعدم جواز الاضافة . من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة . « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٢) .

وفي سورة ص :

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » (٢) .

(١) الآية / ٦٢

(٢) من الآية / ٣٠

(٣) الآية / ٧١

وقد يرد المعمول منصوباً حين يكون معرفة ولكن الأكثر فيه
الاضافة كما أسلفنا . ومن ذلك قراءة من قرأ بالتنوين والنصب
قوله تعالى في سورة الطلاق :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ^(١) . »

الفصل التاسع

جُمْلَةُ النَّفْيِ

الجملة الاسمية المنفية بـ (ليس) أو (ما) اختها يجري عليها عادة ما يجري بنواسخ الابتداء التي تجعل ما كان مبتدأ اسماً لها يبقى على رفعه . وتجعل الخبر لها منصوباً .

وللعبرة القرآنية في هذا الباب خصوصية تلفت النظر وتثير الاهتمام .

ذلك أن الخبر في الجمل المنفية بـ (ليس) يكثر اتصال حرف الجر به ، كقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ^(١) . »

(١) سورة البقرة ، الآية / ٢٦٦

وقوله تعالى :

« أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ » (١)

وقوله تعالى :

« أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ » (٢)

وقوله تعالى :

« أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » (٣)

أما أختها (ما) فان اقتران الباء بخبرها يكاد يكون هو الاصل فلم يرد في العبارة القرآنية إلا موضعان تجرد فيهما خبر (ما) من حرف الجر ، وهما قوله تعالى في سورة يوسف :

« فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا » (٤)

وفي سورة المجادلة :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ » (٥)

والشائع في الاستعمال القرآني نحو قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ

بِتَابِعِ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ » (٦)

(١) سورة الزمر ، الآية / ٣٦

(٢) سورة العنكبوت ، الآية / ١٠

(٣) سورة الانعام ، من الآية / ٥٣

(٤) الآية / ٣١

(٥) الآية / ٢

(٦) الآية / ١٤٥

وفي سورة ق :

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » (١) .

وفي سورة النمل :

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٢) .

ويزعم النحاة أن هذه الباء زائدة يراد بها تأكيد النفي لأن
الموضع نصب ، ولأنها لو حذفت لما تغير في معنى الجملة شيء ،
لكن كيف تكون زائدة ويكون موضعها نصباً وهي ترد على
هذه الصورة في الاستعمال ؟ وهل يجوز أن يقال إن الأصل
عدم وجودها مع ورودها في أكثر المواضع على الوجه الذي
سلفت إليه الإشارة ؟

ويكثر في الجمل المنفية ورود (من) ، وهي تتصل باسم (ما)
كثيراً كقوله تعالى في سورة المائدة :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ » (٣) .

وفي سورة يونس :

« مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » (٤) .

وفي سورة السجدة :

(١) الآية / ٤٥

(٢) الآية / ٩٣

(٣) الآية / ٧٣

(٤) الآية / ٢٧

« مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » (١).

وكثيراً ما تتصل (من) بفاعل الفعل المنفي كقوله تعالى في سورة النور :

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا » (٢).

وفي سورة المائدة :

« أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » (٣).

وتدخل « من » أيضاً على المفعول في الجملة المنفية ، كقوله

تعالى في سورة هود :

« وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » (٤).

وفي سورة يونس :

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » (٥).

والنحاة يزعمون أن الباء و « من » في كل ما ألمحنا إليه ونحو

ذلك زائدة ، لأن الاعراب في كلِّ إما نصب واما رفع . والجر لا يتأتى

بالقياس الى مارسموا من حدود الاعراب ، لأنه في أصله صورة

من صور المفعولية لا يباشر الفعل فيها مفعوله وإنما يتوصل الفعل

(١) الآية / ٤

(٢) الآية / ٢١

(٣) الآية / ١٩

(٤) الآية / ٢٧

(٥) الآية / ٧٢

الى المفعول بحرف الجر ، وهذا معنى تعليق الجار والمجرور بفعل أو ما هو بمنزلة كالمصدر وما اشتق منه ، وهذا التعليق لا يتأتى في الخبر المجرور بالباء بعد « ليس » و « ما » ولا في الاسم أو المبتدأ . ولا في الفاعل أو المفعول به ، فلذلك حكموا بزيادة حرف الجر ولم يزدوا على القول إنه ورد لتوكيد النفي .

وهذا خلف من القول ، لأن توكيد النفي تكأة هشة لا تكاد تستقيم ما لم تقف على قاعدة المعنى الأصلي لكل حرف يرد في سياق النفي .

ولنلتمس ذلك في معنى « من » فإنها تأتي للاستغراق بعد النفي وأنهم ليوردون معناها هذا حين يبحثون في بناء اسم « لا » التي لنفي الجنس في نحو قولنا : لا رجل في الدار . فيقولون في واحد من توجيهاتهم لبناء الاسم إنه مضمن معنى « من » التي للاستغراق . ومعنى الاستغراق فرع من معنى التبويض يجوز إليه بوقوع الحرف في سياق النفي ، كأن المنفي الشيء بأبعاضه وأجزائه كلها وهذا هو معنى الاستغراق .

ولعل معنى الالتصاق في « الباء » هو الذي يصلح في موضع وقوعها مؤكدة للنفي .

وقد يتساءل الباحث : لم تجاهل النحاة هذا الواقع في الاستعمال على كثرته وشيوعه وجعلوا منه صورة فرع مع كثرته ومن النصب

والتجرد من الحرف الجار اصلاً على ندرته ؟ .

والجواب سهل ميسور مرده الى استمساكهم بالأصول التي رسموها لقواعد الاعراب واتخاذهم إياها سبيلاً لا يحدون عنه مهما قام الدليل العلمي على خطئه أو ضيق حدوده عن استيعاب المادة العلمية .

بيان ذلك أن أصولهم تقرر أن الحرف إذا اختص بالأسماء ولم يكن كالجزء منها عمل فيها الجبر ، وأنه إذا أشبه الأفعال في دخوله على الجمل عمل فيها عمل الأفعال من الرفع والنصب ، فأداة النفي شبيهة بالفعل الناسخ فهي تعمل عمله وعمله رفع الأول ونصب الثاني على الأكثر عدا « لا » التي لنفي الجنس . واذن فخير هذه الأدوات منصوب ، فان ورد مجروراً بالباء أو بغيرها مهما كان وروده كثيراً فهو فرع عن النصب .

والحق أن على الباحث في مثل هذه الأمور أن يعود الى الأصول يتبين كيف قامت وعلى أي أساس وضعت . فان تبين له أن أصلاً من الأصول جاء بخلاف المسموع والمروي من المأثور كان لابد له من معاودة النظر فيه ليقوم أساسه على المادة العلمية التي تستنبط منها القواعد وتقوم عليها الأصول .

ولاعبرة في علوم اللغة بالركون الى المنطق المجرد لأنه كثيراً ما يقود الى البعد عن الواقع ، ويأخذ في التدرج والتفرع شيئاً

فشيئاً حتى ينتهي الى امور غريبة عن مادة البحث التي لا بد أن تكون هي الأساس في وضع القواعد ولا سيما قواعد اللغة .

ولعلنا لو أردنا ان نعاود النظر في هذه القاعدة لانتبهنا الى أن خبر « ما » النافية يقع مجروراً بالباء في أغلب أحواله ولا سيما حين يكون مشتقاً ، ويقع منصوباً شأن أخبار النواسخ بقلة ، ولا سيما حين يكون جامداً غير مشتق نحو قوله تعالى في سورة يوسف :

« وَقُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا » (١) .

وفي سورة المجادلة :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » (٢) .

(١) الآية / ٣١

(٢) الآية / ٢

الفصل العاشر

سَالِبُ قُرْآنِيَّةٍ

وفي الكتاب العزيز اساليب وتراكيب لا يمكن ان يفهم غيرها بمعناها ، ولا يؤدي سواها ما تؤديه .

منها : « ما » الاستفهامية مركبة مع لام الجر متصلة بالضمير متكلماً أو مخاطباً أو غائباً ، مالي ، مالك ، ماله ، قال تعالى :
في سورة يوسف :

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » (١) .

وفي سورة يس :

« وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢) .

وفي سورة الصافات :

(١) الآية / ١١

(٢) الآية / ٢٢

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » (١)

« مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ » (٢)

وفي سورة ص :

« وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ » (٣)

وفي سورة غافر :

« وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ » (٤)

ولقد حير هذا الأسلوب القرآني عقول النحاة فلم يهتدوا فيه إلى سبيل ، وخانهم الحس والذوق اللغوي فالتمسوا في التأويل والتقدير وسيلة ، ولا سيما حين يجدون بعده معمولاً لا ذكر ولا أثاراً في الكلام للعامل فيه .

يقول الفراء في قوله تعالى :

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا » (٥)

نصب فتين بالفعل تقول : مالك قائماً كما قال الله تبارك وتعالى :

« فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ » (٦)

قال محققاه - كتاب معاني القرآن - في الحاشية : يريد به « يعني

(١) الآية / ٢٥

(٢) الآية / ٩٢

(٣) الآية / ٦٢

(٤) الآية / ٤١

(٥) سورة النساء / الآية / ٨٨

(٦) معاني القرآن ج ١ ص / ٢٨٠-٢٨١ ، والآية / ٣٦ من سورة الماعز

الفعل « متعلق الحار والمجرور (١) .

وقال الزمخشري في قوله تعالى من سورة الحديد :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٢) .

لا تؤمنون حال من معنى الفعل في مالكم ، كما تقول مالك قائماً
أي ما تصنع قائماً (٣) .

وليس هذا التركيب بدعاً في العربية ، ولا هو بالغريب في لغة
موغلة في القدم ، صنع فيها التداول وطول المراس وكثرة التصرف
ما صنع فأحال أفعالا الى حروف مثل : « ليس » و « على » (٤) ،
و « خلا » و « عدا » و « حاشا » ومزج الاسم بالقعل فاخرج من ذلك
فعلا كـ « حبذا » ، ونحو ذلك مما عجزت قواعد النحو أن تجد له
تفسيراً بحكم القيود التي أحكمها واضعو النحو الأوائل . ومن
العجيب ان هذا التركيب الذي هجره الاستعمال الا دبي من جراء
ذلك قد تلقفته لغة الحديث فظل حياً فيها حتى يومنا هذا ، تعرفه
اللهجة العربية المصرية ولهجة الجنوب في العراق ، يقول لك المصري
مالك واقف ويقول لك العراقي الجنوبي : « إيش مالك حابر » .

(١) معاني القرآن ج ١ ص ٢٨١ ، ومحققاه : احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .

(٢) الآية / ٨

(٣) الكشف ج ٤ ص ٦٤

(٤) للمؤلف بحث بعنوان : (من دلائل القدم في اللغة العربية) قدمه لمؤتمر المجمع اللغوي بالقاهرة في

شباط / ١٩٦٧م

الفصل الحادى عشر

جُمْلَةُ الْحَالِ

قد تاتي جملة الحال فعلية فعلها ماض ، فاما ان يقع قبلها الواو أو لا ، وهي على كل حال لابد عندهم أن تكون مبدوءة بقـد قبل الفعل الماضي ، ولعل الصناعة النحوية هي التي تملي عليهم هذا الشرط لأن جملة الحال في تصورهم لابد أن تكون بمعنى الحال وفعلها حينئذ ينبغي أن لا يدل على غير معنى الحال .

والماضي الخالي من « قد » موغل في المضي فلا يصح والحالة هذه لأن يكون عماد جملة الحال . و (قد) حرف تحقيق ومعنى ذلك أن الفعل بعدها محقق الوقوع فهو أقرب الى معنى الحال لأنه للماضي القريب . ولكن العبارة القرآنية يكثر فيها ورود الجملة الحالية التي فعلها ماض غير مسبوق بقـد .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران :

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا » (١) .

يقول الزمخشري : اي قالوا وقد قعدوا (٢) .

وفي سورة البقرة :

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ » (٣) .

يقول الفراء : المعنى والله أعلم : « وقد كنتم » . ولولا إضمار « قد »

لم يجزمثله في الكلام ، ألا ترى أنه قد قال في سورة يوسف :

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ » (٤) .

المعنى والله أعلم : فقد كذبت (٥) .

ومن أمثلة المواضع التي ورد فيها هذا الاستعمال قوله تعالى في

سورة الأنعام :

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ » (٦) .

وقوله تعالى في سورة النمل :

« وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » (٧) .

(١) الآية / ١٦٨

(٢) الكشف ج ١ ص ٢٢٩

(٣) الآية / ٢٨

(٤) الآية / ٢٧

(٥) معاني القرآن ج ١ / ص : ٢٤

(٦) الآية / ١٠٠

(٧) الآية / ١٤

قال الزمخشري : واو الحال و « قد » بعدها مضمرة (١).
ووردت جملة الحال التي فعلها ماضٍ بغير الواو في قوله تعالى :
« أَوْجَاوُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ » (٢).
وهنا يعود الفراء فيقول : والعرب تقول أتاني ذهب عقله
يريدون قد ذهب عقله ... فاذا رأيت (فَعَلَ) بعد كان ففيها « قد »
مضمرة (٣).

ومرد ذلك كما قلنا الى الصناعة النحوية . لأن جملة الحال كما
أسلفنا لا بد عندهم أن تكون بمعنى الحال و كون فعلها ماضياً يناقض
ذلك .

وهذا تخطيط وخلف من القول كما يقولون . لأن معنى الحال
هنا غير معناها هناك في الأفعال . فهي هنا وصف فضلة منصوب
توصف به الهيئة ، ولا مدخل لمعنى الزمن فيها من أي وجه .
اما اشتراط إضمار « قد » بعد الواو فلعل سببه أن « قد » كثيراً
ما تكون في الجملة الفعلية حين تقع موقع الاسم كما في خبر « أن »
المخففة من الثقيلة كقوله تعالى في سورة المائدة :

« قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتُنَا » (٤).

(١) الكشف ج ٣ ص / ١٣٥

(٢) سورة النساء الآية / ٩٠

(٣) معاني القرآن ج ١ / ص : ٢٨٢

(٤) الآية / ١١٣

مثلها في ذلك مثل السين وسوف ولو .

وواو الحال عندهم تغني عن الضمير الذي يربط جملة الحال بصاحب الحال ، ووقوع « قد » بعدها ينفي احتمال ان يراد بها العطف .

* * *

ومما يدل على أن اقتران الفعل الماضي بقدر يجعل الجملة الفعلية شبيهة بالاسمية صالحة لتقع موقعها ، انهم يشترطون اقتران جواب الشرط بالفاء حين يكون الجواب جملة فعلية مسبوقة بـ « قد » نحو قوله تعالى في سورة يوسف :

« قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » (١) .

ولذلك نجد العرب والمفسرين يقدرّون « قد » قبل الفعل الماضي اذا وقع جواباً للشرط مقترناً بالفاء كقوله تعالى في سورة يوسف :

« وَإِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٢) .

ونحو قوله تعالى في سورة النمل :

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ . وَمَنْ جَاءَ

بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ . . . » (٣)

ومن بدائع أسلوب القرآن أنه يتصرف في الجملة تصرفاً لاتلحق

به قواعد النحاة وعلماء البلاغة ، فيأتي بالجملة الخبرية لمعنى الانشاء

(١) الآية / ٧٧

(٢) الآية / ٢٧

(٣) الآية ٩٠

كالأمر والنهي ، وهو تطف في الدخول الى النفس وبلوغ الغاية من الخطاب .

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » (١).

وقوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ » (٢).

والزمخشري يفسر هذا الاستعمال تفسيراً يبلغ غاية الاصابة فيقول : إخبار في معنى النهي كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع الى الامتثال والانتفاء فهو يخبر عنه (٣) .

وشبهه بذلك قوله تعالى في سورة الصف :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٤).

جي بالفعل المضارع لمعنى الأمر ، والمقام يقضي بذلك ويوحى

(١) الآية / ٨٣

(٢) الآية / ٨٤ من سورة البقرة

(٣) الكشف ج ١ ص / ٧٨ - ٧٩

(٤) الآية / ٩ ، ١٠

به ، واسلوب الخطاب من اوله لطيف المدخل رفيق رقيق ، الا ترى الاستفهام في جملته المليئة بالرفق والمحبة ، إنه لا يناسبها صريح الأمر بحال ، ولذلك جيء بالفعل المضارع لمعنى الأمر ودليل ذلك أنه أجيب بعد ذلك بقوله تعالى :

« يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » (١).

والفعل مجزوم لوقوعه في جواب الطلب .

ومثل هذا التصرف في الأسلوب تضيق به قواعدهم ، ولا يتسع له فهمهم لقضايا التركيب ومسائله ، وهو أدخل في علم المعاني الذي سلخوه من النحو أو سلخوا النحو منه فأحالوه ييساً لاماء فيه ولا رواء .

ولولا أن الزمخشري معرق في فهم الأساليب عميق في ذوقها وفي التمييز بينها لما ألفيناها يصيب غاية المعنى وغاية مرماه .

ومن مزايا العبارة القرآنية هذا التصرف في الأساليب تصرفاً عجز النحاة أن يلحقوه أو يدركوا شأوه .

ومن أمثلة ذلك صور التعجب التي لا تعرفها كتب النحو ولا قواعد النحاة ، ولكن الزمخشري بصادق حسه ومرهف ذوقه بلغ مرماها وأحاط بمعناها .

قال تعالى في سورة المدثر :

« إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » (٢) .

(١) سورة الصف الآية / ١٢

(٢) الآية / ١٨ ، ١٩

يقول الزمخشري : تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز ورميه

الغرض

ومعنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره ، الإِشعار

بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بان يحسد عليه ويدعو عليه حاسده

بذلك (١) .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة عبس :

« قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » (٢) .

ومن ألوان التعجب في القرآن الكريم نحو قوله تعالى في سورة الحاقة

«وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ» (٣) .

يقول الزمخشري في تفسيره : والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم (٤)

إن أساليب العبارة القرآنية ذخيرة لا يمكن أن يحيط بها مثل

هذا البحث أو يستقصيها استقصاء ، وحسبه أن يلم بأطراف

منها ويدل عليها . وهي معين ثر غدق يفتح لذي الذوق والحسن

اللغوي آفاقاً في فهم الأساليب وذوقها رحيمة مشرقة .

ويزيح عن نحو العربية عقاباً صنعها قصور الفهم وضيق الأفق

عند كثير ممن أسسوا قواعد النحو وأحكموا مغاليقها في غير طائل .

ولعل هذه الأساليب الرفيعة واجدة في الباحثين ممن وهبوا

(١) الكشف ج ٤ ص ١٥٨

(٢) الآية / ١٧

(٣) الآية / ٤١ ، ٤٢

(٤) الكشف ج ٤ ص ١٣٧

فضيلة الصبر والأناة والبراح من الوقت والولوع بالبحث من يؤثرها
بما تستحق من جهد قيم ووقت ثمين .
وغاية هذه البلغة أن تكون حجراً في بناء ، أو نبتة في حديقة
غناء ، وأن تكون ثمرتها كفاء للنية التي قادت إليها وبعثت الهمة
للحرص عليها .

والله من وراء القصد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ثبت الكتاب

	<u>الصفحة</u>
المقدمة	٣
تمهيد	٦
المبتدأ والخبر	١٨
الفعل والفاعل	٢٧
المفعول	٣٥
حذف القول	٣٨
حرف الجر	٥٠
غير وسوى	٦١
المصدر، حروفه	٦٨
اسم الفاعل	٧٦
جملة النفي	٨٦
أساليب قرآنية	٩٣
جملة الحال	٩٦